

**عبد العزيز بن عبد الله**  
أستاذ الحضارة والفن ( كلية الآداب )  
الأمين العام لمركز تنسيق التعريب في العالم العربي

# مطببات الحضارة المغربية

الطبعة الثالثة المطولة لكتاب مظاهر الحضارة المغربية  
( مقرر في السلك الجامعي ومدارس المعلمين )

الجزء الثاني



حقوق الطبع محفوظة  
1963

نشر وتوزيع

دار الكتب العربية  
الرباط

القسم الأول:

المظهر الحضاري الاجتماعي

## الفصل الأول:

### المرأة المفرية

يعتقد المؤرخون أن جميع الأديان والامم قبل العرب ، ساءت الى المرأة فقد كان الاغريق يعتبرون النساء من المخلوقات المنحطة التي لا تصلح لغير دوام النسل وتدبير المنزل وكان جميع قدماء المشرعين يظهرن نفس القسوة على المرأة ومن ذلك قوانين الهندوس وكان الصينيون والروس والايطاليون والاسبان وقبلهم الرومان يحتقرون المرأة كما تدل على ذلك الامثال السائرة عندهم وتعتبر جميع الشرائع الهندوسية والاغريقية الرومانية والحديثة المرأة - كما يقول جوستاف لوبون - من فصيلة الاماء او الصبيان وقد انعقد ابان البعث النبوي مؤتمر في بلاد الرومان تساءل هل للمرأة روح واجمع المؤتمرون على أن النساء أشياء لا روح لها تباع وتشترى ويتصرف فيهن الرجل كيف يشاء .

وتطورت الآراء في أوروبا حول المرأة حتى تبلورت خلال القرن الثامن عشر في نظريات اوكست كونت الذي هو ابعد الفلاسفة عن فكرة الطبيعة الاباحية في المرأة .

وما هو الوضع الذي أعطاه هذا العالم للمرأة في فلسفته الايجابية التي كان لها اكبر الاثر في تكييف نظريات عصره في الميدان الاجتماعي ؟

يقول الفيلسوف : ان الرجل والمرأة يهدفان الى غايات متباينة في الحياة فمرمى الرجل هو العمل وغاية المرأة الحب والحنان والواجب يدعو الرجل الى قيادة نشاط الامة بينما على المرأة الانصياع وبذل النصيحة والتأثير الاخلاقي والتهديب لانها تشخص الحب وترمز الى قوة العاطفة والقلب وتمثل روح التجانس والتقارب فقوى الجنسين متكاملة واذا ما تناسقت هذه القوى فيما بينها فانها تتمخض عن السعادة المنزلية والوحدة العائلية .

وهذا النظام الذي يجعل المرأة خاضعة للرجل يسند اليها مهمة رائعة في الحياة الخاصة بينما يحظر عليها التسرب الى الحياة العمومية ومن هنا انبثق الاحتجاج ضد اجوست كونت الذي أخذ عليه انصار حرية المرأة حصرها في نطاق ضيق ولكن « الفيلسوف الايجابي » يرد على خصومه بأن انافة الرجل على المرأة هو ظاهري فقط لان للمرأة تفوقا ناصعا على الرجل في الميدان الاجتماعي لانها مجبولة على المرونة

الاجتماعية وهي عامل المحافظة والتوازن في الهيكل الاجتماعى وحتى فى الزواج لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة لان لهما حقوقا وواجبات مختلفة فالرجل قوام على البيت وهو الذى يعول المرأة كما يقول الفيلسوف العصرى لان المرأة يجب ان تجرد من هموم المادة فناموس التطور الحديث يقضى فى فلسفة كونط الايجابية بجعل الحياة النسوية منزلية يوما عن يوم وتجريدها أكثر ما يمكن من كل عمل خارجى لكفالة وجهتها العاطفية ويذهب هذا الفيلسوف الى حد حرمان المرأة من الارث بالمرّة نظرا لكون التكاليف المادية منوطة بالرجال وحدهم .

ثم جاء العالم برودهون فذكر فى كتابه «العدالة» ان الرجل والمرأة غير متساويين وانهما متكاملان وبرهن على ان الرجل يتفوق على المرأة من ثلاث نواح : ماديا وفكريا وأديبا فالتفوق المادى ظاهر والتفوق الفكرى راجع لعجز المرأة عن تصور النسب بين الاشياء فهى قادرة على تصور الامور منفصلة بعضها عن بعض ومن هنا جاء انصرافها للروحيات والشعر لا للعلوم .

فللمرأة القدرة على الاحتذاء لا على الابتكار والخلق لهذا لم نراها فى مختلف مراحل التاريخ حققت اكتشافا علميا او اسست مدرسة ادبية او فنية وقد ذهبت مدام جورج سان الروائية الفرنسية الشهيرة الى حد القول بان « المرأة بليدة بالطبع » ولا شك ان هذا الحكم الصارم الذى صدر من امرأة ضد المرأة راجع الى الوضع الخاص الذى جعل المرأة فى نظر برودهون محرومة من « روح الجمع والتأليف » عاجزة عن سبر غور الاشياء وادراك الروابط الدقيقة التى تجعل من جزئيات مختلفة كلاً متناسقا ووحدة مترابطة فهى تفهم كل فكرة على حدة ولكنها تتقاعس عن تصور الفكرة العامة فالرجل اقوى فكريا من المرأة بنسبة تسعة الى اربعة وخلقيا بنسبة ثلاثة الى اثنين ويمكن تلخيص هذه النسب والقول بان الرجل يفوق المرأة فى المجموع بنسبة سبعة وعشرين الى ثمانية .

والمرأة تفوق الرجل فى الجمال ومن هنا تقيده وتحدوه الى العدالة وميزة الجمال هذه هى التى تضى على مهمة المرأة الاجتماعية مغزاها الكامل .

والجمال هنا جسمانى وفكرى لان جثمان الرجل يتملى بجمال المرأة الظاهر بينما تتملى روحه بجمال روحها وروعة نفسيته التى هى مرآة للرجل فكثيرا ما تساند المرأة زوجها وتحول بينه وبين الانهيار ولا يتقبل الرجل نظام الزوجية الا بفضل مثالية المرأة .

أما ميشلى Michelet فانه استمد نظريته فى المرأة من الثورة الفرنسية وقد ذكر فى كتابه « المرأة » ان دور هذه فى الحياة هو اضعاف طابع السمو على كل شىء حولها فهى الشعر الذى يستمد منه الرجل شجاعته كما يستروح منه الطفل مثاليته وهى

الينبوع الخلقى فى العائلة كما أن الدين هو مثال الفضيلة فى المجتمع فالمرأة هى الطبيب الحق .

تلك نظريات فلسفية فى المرأة كان لها طبعاً تأثير كبير فى التطور النسوى فى أوروبا فى العصر الحديث مما جعل المرأة تتحرر فى جرمانيا مثلاً بفرض ثقة كاملة فى دورها الاجتماعى والتهذيبى وكذلك فى فرنسا حيث صرفت المرأة جهودها لاسترجاع مكانتها داخل المنزل ولمشاطرة الرجل فى الحقل الأدبى الكتاب والتأليف .

ولكن تطور العلوم ساعد المرأة أكثر من دعوة الفلاسفة الى الانبثاق فخرجت المرأة فى أوروبا الى معترك الحياة لتكون طبيبة ومحامية وتاجرة وممثلة

وإذا كانت المرأة الاوربية قد تحررت داخل اطار الاعراف فان القوانين المتعلقة بها لم تتغير الا قليلاً فهى ما زالت سجينه القانون لا سيما فى فرنسا حيث لا يطلق لها مثلاً كامل التصرف فى مالها كما عند المرأة المسلمة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً وقد بدأت المرأة الفرنسية تتمتع ببعض الحقوق منذ 1907 .

فقد تمتعت المرأة العربية حتى قبل الاسلام بمركز اجتماعى لم تحظ به النساء فى كثير من أقطار أوروبا حتى فى العصور الحديثة وقد ذكر كوستاف ولوبون أن الاسلام كان ذا تأثير عظيم فى حال المرأة فى الشرق فهو قد رفع مستوى المرأة الاجتماعى خلافاً للمزاعم المكررة على غير هدى والقرآن قد منح المرأة حقوقاً ارثية بأحسن مما فى أكثر قوانيننا الاوربية .. وإذا اردنا ان نعلم درجة تأثير القرآن فى أمر النساء وجب أن ننظر اليهن ايام ازدهار حضارة العرب فقد ظهر مما قصه المؤرخون انه كان للمرأة من الشأن ما اتفق لأخواتها حديثاً فى أوروبا وذلك حين انتشار فروسية عرب الاندلس وظرفهم ( حضارة العرب ص 488 ) وقد لعبت المرأة المسلمة أدواراً فى منتهى الخطورة ايام كان منها النساء العالمات البارعات والشواعر الماهرات ممن ذاع صيتهن فى العصر العباسى فى المشرق وفى العصر الاموى فى الاندلس .

نعم ان المرأة المسلمة لم تحتفظ بهذا الوضع السامى الذى حولها الاسلام اياء مما جعل تطورها يتحجر أحياناً وقد أشار ابن رشد الى سوء وضع المرأة فى الشرق من عدم تمكينها من اظهار قواها كأنها لم تخلق الا للولادة ، وارضاع الطفل .

ولعل الغريب فى النظريات الفلسفية هو ان ابن رشد هذا قد اعترف للمرأة بميزات سامية لم يعترف لها بها حتى أولئك الفلاسفة المحدثون الذين درسنا نظرياتهم وذلك حين أكد فى تعليقه على جمهورية افلاطون أنه لا يوجد اختلاف بين الرجال والنساء فى الطبع وانما هو اختلاف فى الكم اى ان طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ولكنهن اضعف منهم فى الاعمال والدليل على ذلك مقدرتهن على القيام بجميع أعمال

الرجال كالحرب والفلسفة وغيرهما ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال .

صقلت الحياة العربية نفسية المرأة فجعلت منها شاعرة بارعة وخطيبة مفوهة وقد أحصيت من بين أبرع هؤلاء الشواعر نحو الثلاثين منهن اروى بنت عبد المطلب وأم الخير الخطيبة وأميمة ام تابط شرا والحارثية المشهورة بالحماس والفخر وحليمة الموصوفة بالحكمة وحميدة التي كانت كلما تزوجت برجل ورأت فيه عيبا تهجوه بالشعر حتى خشى لسانها العرب وسعدى التي تغنت بعشقتها وصفية ابنة مسافر التي تلونت في أساليب البلاغة وعمرة ذات الشعر الحكيم وراوية العرب وعمرة الخثعمية الحماسية وفاطمة الخثعمية الكاهنة وفاطمة الخزاعية التي لم يكن شعرها يخرج عن الحكم والامثال وناجية التي شاركت في الحروب وحرضت على القتال

وفي هذه المجموعة من الشواعر العربيات ألوان شتى تعطينا صورة عما بلغته المرأة في المجتمع العربي قبل الاسلام من مكانة في الادب والشعر فى أدق جوانبه وأعرق فنونه .

وعندما جاء الاسلام انفسح الميدان أمام المرأة فشاركت الرجل في العلوم النقلية والعقلية وطرقت أبواب الشعر وابتكرت في الغناء وأصبحت كاتبة بارعة بينما كانت من قبل تقرض الشعر سليقة ذلك ان الاسلام لم يجد عند العرب سوى خمس نسوة يقرأن ويكتبن منهن حفصة بنت عمر ( البلاذرى ص 458 )

وقد ترعرعت فى أحضان الاسلام الآلاف من النساء اللواتى كرعن اصناف العلوم حتى نافسن الرجال وفرضن وجودهن وأصبحن أستاذات لكبار علماء عصرهن وقد ترجم ابن حجر فى الاصابة 1543 امرأة كان من بينهن العالمات والفقيات واللغويات والمحدثات ( ج 4 من ص 424 الى ص 984 ) وخصص الامام النووى فى تهذيب الاسماء والخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد والسخاوى فى الضوء اللامع حيزا كبيرا لترجمة النساء العالمات وقد ذكر السخاوى ان السيدة ملك سمعت معه على بعض مشايخه فى القاهرة وسمع هو منها فى دمشق وقد اتهم الذهبى اربعة آلاف من المحدثين ولكنه قال عن النساء المحدثات « ما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها » ( ميزان الاعتدال ج 3 ص 395 ) وترجم السيوطى 37 شاعرة واقتطف نماذج رائعة من اشعارهن فى كتابه المخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق والموسوم ب « نزهة المجلساء فى اشعار النساء » وتعلمذ الامام ابن عساكر الى احدى وثمانين امرأة أخذ عنهن العلم ( ياقوت ج 5 ص 140 والنعمي ج I ص 101 ) وقد أفرد المقرئ فصلا لنساء الاندلس وأخذ هو نفسه عن الكثيرات منهن كما تتلمذ عليهن ابن الاثير والحافظ الذهبى مؤرخ الاسلام .

وقد اشار الذهبى الى زينب بنت سليمان بن هبة الله وقد تلمذ لها ( المشتبه فى أسماء الرجال طبعة ليدن عام 1863 م ص II ) كما اشار الى عدة شيوخ أخذوا عن شهدة التي من طبقتها تجنى الوهبانية (ص 69 ) ومن النسوان الاستاذات اللواتى

ذكرهن ست الأدب بنت مظفر بن البرنى روى عنها جلال الدين عبد الجبار بن عكبر (المشتبه ص 31) وتحية الرسبية شيخة مسلم بن ابراهيم (ص 71) وتقية الارمنازية الشعيرة وهى بديعة النظم ماتت فى حدود 580 هـ وتقيتان عالمتان أخريان (ص 74) وخبرة البلوية الشعيرة التابعة (ص 86) ورابعة الفرضية تلميذة الجوهري واختها فاطمة التى روت عن ابى جعفر بن المسلمة (ص 122) وشرف النساء بنت الابنوسى البغدادية (ص 125) وحيابة شيخة ابى سلمة التبوذكى (ص 139) وعالمات أخريات (ص 162 - 168 - 172)

واشار ابن القاضى الى ام هانىء بنت الهورىنى شيخة السيوطى (درة المجال ص 82) وخديجة بنت محمد المقدسية تلميذة الزبيدى وابن صباح وخديجة بنت عبدالرحمن المقدسية تلميذة القزوينى والزبيدى (توفيت عام 701) وخديجة بنت المرآتى سمعت من الزبيدى ثلاثيات البخارى وسمعت الفخر الاربلى (توفيت عام 999) وخديجة بنت يوسف ابن غنيمة البغدادية ولدت بدمشق وسمعت من ابى نصر الشيرازى (توفيت عام 699 هـ) (درة المجال ص 141) وزينب الصالحية المسندة وزينب البغدادية المسندة الرحالة وزينب الحرائية ثلاثهن اخذ عنهن ابن رشيد السبتي عام 684 (ص 150) وشامية الصديقية الشيخة المسندة امة الحق سمعت من ابن حنبل الرصافى ومن جدها ابى الفتوح ذكرها ابن الزبير الاصغر فى مشيخته (ص 483) هدية المقدسية روت البخارى عن ابن الزبيدى سمع عنها جماعة توفيت عام 699 (ص 484) ام على هدية البغدادية سمعت من ابن الزبيدى وسمع عنها جماعة وكانت قابلة توفيت عام 712 هـ (ص 484) وزيرة ست الوزراء بنت عمر البخارى من ابن الزبيدى ومسند الشافعى وروتهما بالشام ومصر توفيت عام 722 هـ (ص 485)

وتعرض بابا السودانى الى رحمة بنت الجنان التى كانت تحفظ أحاديث كثيرة فى الصحاح وتحيط بحفظ الادعية الواردة وكثير من تفسير قصص القرآن واخباره (نيل الابتهاج ص 322) كما أشار الى ام هانىء العبدوسية التى قال عنها ابن غازى انها آخر فقهاءهم (نيل الابتهاج ص 382)

وقد تعرض صاحب فهرس الفهارس الى مشيخة النسوان (ج 2 ص 71) فراجعها وهناك عالمات أخريات منهن العالمة آمة اللطيف لها تصانيف (كتاب المدارس فى تاريخ المدارس لعبد القادر بن محمد النعيمى المتوفى سنة 927) (ص 112) وفاطمة بنت عبد الله بن أبى بكر ابن زيدة سمع عنها المعجم الكبير ابو الفتوح مسعود بن محمد بن على المصعبى الميمى (ميمة بلاد بأصبهان) (معجم البلدان باقوت ج 8 ص 228) وعائشة بنت الحسن بن ابراهيم الوركاني امرأة عالمة واعظة روت عن أبى عبد الله محمد بن اسحاق بن مندة روت عنها ام الرضى صوبنت احمد بن على الجبال وغيرها ماتت سنة 460 (معجم البلدان باقوت ج 8 ص 417) وزينب بنت الكمال سمع منها

بدمشق الامام العلامة ابراهيم الصفاقسى وهى من اهل القرن الثامن ( نيل الابتهاج  
لاحمد بابا ص 11 )

وكانت لملك ابنة تحفظ علمه يعنى الموطا وكانت تقف خلف الباب فاذا غلط  
القارىء نقرت الباب فيفطن فينظر مالك فيرد عليه ( المديباح لابن فرحون ص 25 )

وقدم نصيب مكة فأتى المسجد الحرام فجات ثلاث نسوة فجلسن قريبا منه وجعلن  
يتحدثن ويتذاكرن الشعر والشعراء ( معجم البلدان ياقوت ج 8 ص 39 )

ولابن وداعة الرندى تأليف جمع فيه أربعين حديثا عن أربعين امرأة من الصحابة  
( المديباح لابن فرحون ص 58 )

وقد أحصى من ترجم للحافظ السيوطى عدد شيوخه من النساء فبلغن اثنتى  
عشرة شيخة

ولابى حيان النحوى كتاب فى ابنته نضار سماه « النضار فى المسلاة عن نضار »  
وذكر ابو حيان أنها خرجت جزءا لنفسها وانها تعرب جيدا وكان يقول دائما ليت  
أخاها كان مثلها توفيت عام 730 فى حياة والدها ( النفع ج 1 ص 613 )

وللحافظ ابن حجر « المشيخة الباسلة للقبابى وفاطمة » والقبابى هو المسند  
عبد الرحمن ابن عمر اللخمي المصرى المقدسى وفاطمة هى المسندة المعمرة بنت الشيخ  
صلاح الدين ابن ابى الفتح المقدسى وجمعهما لاشتراكهما فى المشائخ ( فهرس الفهارس  
ج 2 ص 59 )

وكانت بالاندلس شاعرة من اليهود اسمها قسونة بنت اسماعيل اليهودى وكان  
ابوها شاعرا واعتنى بتأديبها ربما صنع من الموشحة قسما فأتمتها هى بقسم آخر  
( النفع ج 2 ص 950 )

ولما تكلم الشيخ فالح الظاهرى فى صحائف العامل على امامة المرأة ذكر أنه لو  
حضرت قريش الطبرية أو عائشة المقدسية أو كريمة المروزية وهن من النسوة المسندات  
أصل وراهن غير مرتاب ولا متشكك ( ص 13 منه و ص 37 من أنجح المساعى له  
أيضا راجع فهرس الفهارس ج 2 ص 297 )

ولعل النساء المسلمات قد حققن موسوعة علمية لم يتأت لامة أخرى ان تحظى  
بها فى مختلف الاعصار والامصار وقد قال عروة فى عائشة الصديقية : « ما جالست  
أحدا قط أعلم بقضاء ولا بحديث الجاهلية ولا أروى للشعر ولا أعلم بفريضة ولا بطب  
من عائشة » وقد وفدت الصحابية ام الدرداء على بيت المقدس وكانت تعقد حلقات  
التدريس فيحضرها سليمان بن عبد الملك واخذ الامام الشافعى الحديث عن السيدة  
نفيسة وضمته حلقتها فى القاهرة وقامت بالصلاة عليه بعد موته وحكى ابن خلكان



عروس حضرية

(ج 2 ص 251) عن نفيسة هذه أنها كانت تلقي محاضرات يجلس للانصات اليها مشاهير العلماء وكانت عائشة الحنبلية احدى استاذات ابن حجر العسقلاني في الحديث وقد تتلمذ بن حجر لزينب بنت محمد بن عثمان الدمشقية المحدثة الفقيهة وكانت حلقة درسها لا تقل عن الخمسين طالبا للحديث كما تتلمذ ابن حجر ايضا لزينب بنت عثمان بن محمد التي كانت لها اليد الطولى فى علوم السنة ولها رسائل فى الفقه والحديث استند عليها كثير من العلماء وفى نفس العصر كانت فاطمة بنت المهدي زوجة لاحد العلماء وكان زوجها يرجع اليها فيما يشكل عليه فاذا ضايقه الطلبة استشارها وقد درس ابن خلكان على أم المؤيد وأخذت هى عن الزمخشري صاحب الكشاف وذكر ابن العماد الحنبلي فى شذراته عن أم الخير وتخصصها فى علم الحديث « ان أهل الارض نزلوا درجة فى العلم بموتها » وقد تتلمذ على عنيدة خمسمائة رجل وامرأة ( المجلة الاسيوية سنة 1930 ص 50) وقرأ الخطيب البغدادي صحيح البخارى على كريمة بنت احمد المروزي التي أسهمت بنصيب كبير فى تكوينه ( ياقوت ج I ص 247 - صلة ابن بشكوال ج I ص 133 ) وهى حافظة من رواة البخارى ( كامل ابن الاثير ج 10 ص 26 ) وقد حدثت رقية حفيدة ابن مزرع بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس المزى وألقت محاضرات فى المدينة وهى من مشاهير المحدثين وأخذت ست الوزراء البخارى ومسند الشافعى عن الزبيدي وذكر الصفدى أنها كانت محدثة عصرها وروى عنها مشاهير العلماء وقد برعت عائشة بنت على الدمشقية فى النحو والصرف والبيان والمعرض والحديث وفتحت حلقة للتدريس وكانت عائشة المقدسية ( من حفدة ابن قدامة المقدسى ) سيدة المحدثين بدمشق سمعت البخارى على الحجار وروى عنها ابن حجر وقرأ عليها كتبا عديدة وانفردت فى آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة فى تعليم العلوم لينة الجانب للتعليم وقد فاقت العروضية مولاة أبى المطرف بن غلبون هذا الاخير فى النحو واللغة والعروض وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادير القالى وتشرحهما وكانت فاطمة بنت الشيخ جمال الدين الدمشقى من المحدثات أجازها معظم علماء القرن السابع فى الشام والعراق والحجاز وقارس والفقيهة فاطمة السمرقندية زوجة علاء الدين القاشانى ألقت المؤلفات العديدة فى الفقه والحديث وانتشرت مصنفاتها بين العلماء وبلغت شهدة الدينورية بين علماء القرن الثانى عشر منزلة فى اسناد الحديث لم يبلغها أحد حتى لقبتم بمسندة العراق ولها رسائل عديدة فى الحديث والفقه والتوحيد ولبنى الاندلسية العالة بالنحو والشعر والحساب وسائر العلوم .

وقد تولت عالمة زمانها فاطمة بنت قمريزان المتوفاة عام 966 مشيخة مدرسة الزجاجة ومدرسة العادلية وانتهت اليها الرياسة بحلب

أما الشواعر والادبيات والكاتبات اللواتى نبغن فى الاسلام فهن كثيرات جدا منهن حسب حروف الهجاء أسماء العامرية التى مدحت عبد المومن ابن على فى قصيدة

طلبت منه رفع الضريبة عن دارها والحجز عن اموالها وأم العلاء الحجازية التي لها قصائد وموشحات ذكرها صاحب المغرب وأم الكرام ابنة المعتصم صاحب المرية صاحبة الموشحات وأمة العزيز الاندلسية التي ذكر جملة من شعرها ابن دحية في المطرب من اشعار المغرب وبثينة ابنة المعتمد وثقية ابنة ابي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه واخذت عنه العلم بالاسكندرية ونظمت القصائد الخمرية والحربية مبرهنة عن طول باع المرأة في كل ذلك وحفصة بنت حمدون الاندلسية وحمدة بنت زياد الملقبة بخنساء المغرب والشاعرة الشلبية التي كانت تجالس الملوك وتناظر الشعراء والتي وجهت الى يعقوب المنصور بقصيدة تتظلم فيها من ولاة شلب وعائشة القرطبية التي كانت تمدح الملوك وترتجل الشعر ارتجالا وروى ابن جيان انها اعقل بنات عصرها وعائشة الباعونية صاحبة القصيدة البديعية التي نظمتها على منبوال تقي الدين بن حجة والتي درست في الشام ومصر واجاز لها العلماء بالافتاء والتدريس ولها مؤلفات في الادب والفقه وديوان شعر وكانت تكاتب الادباء والحكام وتستفتى في المشاكل اللغوية والفقهية والادارية وتجتمع بالملوك فتجدمتهم اذانا مصيخة. وعائشة التيمورية وعليه بنت المهدي أخت الرشيد لها ديوان شعر وعمرة ابنة الخنساء والشاعرة الغسانية من شواعر الاندلس الموصوفات في المائة الرابعة وفضل الشاعرة من مولدات البصرة ولبانة زوجة الامين بن هرون الرشيد وليلى الاخيلية ومهجة القرطبية صاحبة ولادة بنت المستكفي الشاعرة التي كانت تناضل الشعراء وتجادل الادباء وتفوق البرعاء وكانت زوجة الفرزدق اديبة نقادة يحتكم اليها شعراء العصر كما كانت مريم بنت ابي يعقوب الانصارى تعلم النساء الادب .

ولا يخلو كتاب من كتب التراجم والادب من أمثلة حية لنشاط المرأة العربية في مختلف الميادين فهناك مصنفات في النساء المؤلفات في الاسلام وهنالك بلاغة النساء وهنالك الاماء الشاعرات وغير ذلك

وقد ساق كوستاف لوبون في حضارة العرب جملة من هؤلاء من بينهن فاطمة التي كانت تنسخ للحكم الثاني والتي أعجب العلماء برسائلها في الفنون والعلوم وخديجة الشاعرة ومريم التي كانت تعلم بنات الأسر الراقية في اشيلية العلم والشعر فتخرجت في مدرستها نساء بارعات وراضية نابغة عصرها في القريض والقصص الرائعة والتي جالت في الشرق حيث كانت محط هتاف العلماء في كل مصر.

وورد في « خلاصة الاثر » أن بنت ابن الصائغ صارت شيخة للطب بدار الشفاء المنصورية بمصر بعد وفاة والدها ( ج I ص 204 )

ويذكرون من بين صالونات الادب التي كانت مجعما لكبار المفكرين مجلس سكيته في الحجاز ومجلس عليه بنت المهدي ومجلس الفضل في بغداد ونزهون في غرناطة وولادة بنت المستكفي وتحدث ابن جبير عن مجالس العلم والادب التي شاركت

فيها المرأة بحضوره في القرن السادس

وهكذا انفسح مجال العلم أمام المرأة المسلمة في مختلف الاعصار والأمصار وقد أثار القلقسندى صاحب صبح الأعشى مشكلة الثقافة النسوية فقال : « لم يرو أن أحدا من المتقدمين أنكر على النساء هذا الحق »

أما في الميدان العسكري فقد ذكر الطبري ان النساء كن يجهزن الجيش في حروب القادسية ( ج 6 ص 317 ) وضربت صفية المثل الرفيع في البطولة الاولى للمرأة المسلمة ( ابن الاثير ) وشهدت ام سليم والدة أنس ابن مالك المغازي كلها ( أسد الغابة ) وشاركت أم عمارة مع زوجها في غزوة أحد وحرب اليمامة وأصيبت اثنتي عشرة اصابة في غمرة المعارك وصاحت خولة في جموع النساء بدمشق فأسقطن ثلاثين جنديا للعدو ونقل ادوار دجيين في تاريخه هذه الواقعة فقال : « كان هذا الجيش من الجنس الناعم جديرا بالاجلال والتقدير اذ كانت المسلمات ماهرات في ضرب السيف واستعمال الرماح ورمي السهام واستطعن بتلك الحلال ان يحافظن على عفافهن في ظرف دقيق وموقف حرج » وفي موقعة اليرموك ثارت الغيرة والحمية في النساء فبرزن من خيامهن واقتلن أعمدتها وحملن ما استطعن حمله من السلاح وأنزلن بالعدو هزيمة نكراء وذكر ابن الاثير أن أسماء بنت يزيد قتلت وحدها تسعة من جنود الروم وتقدمت جورية أخت معاوية بفرقة من النساء وأخذت تناضل في اليرموك حتى جرحت وفي يوم التعوير ( اليرموك ) كانت أسماء بنت أبي بكر تقاتل الى جانب زوجها الزبير بن العوام وبارزت غزاة الحجاج فلاذ بالفرار وكانت والدة أسماء وأخته تحاربان في الحروب الصليبية وفي الهند قتنت رضية سلطانة الاسد بضربة من سيفها البتار وكانت تتخذ زينتها من الاسلحة والدروع وفي احدي الغزوات فنشر النساء خمرهن وجعلنها رايات وزحفن نحو العدو حتى ظنن المشركون أنها نجدة وأنهزموا ( كامل ابن الاثير ج 2 ص 207 ) وكان لخزانة ابنة خالد حظ وافر من الادب والفروسية وقد حضرت فتوح العراق مع سعد بن أبي وقاص وخاضت معه المعامع وحضرت معركة الحرة ، وكانت خولة الكندية تفوق الرجال فروسية وبسالة وحضرت مزروعة الحميرية فتوح الشام ومصر مع خالد بن الوليد -

وفي القرن الاخير أخذ نساء مصر العساكر الفرنسية الى دورهن وقتلنهم ورمينهم في الآبار ( رسالة نقولا الترك ص III )

أما في الموسيقى والغناء فهناك المآت ممن كان لهن المباع الطويل والمبراعة الخارقة وقد ذكر معبد عن جميلة الخزرجية أنه لولاها لما كان هو وزملاؤه مغنين وكان يتحاكم اليها أهل الفن في مكة والمدينة والبصرة وتعتبر عزة الميلاء أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء بالحجاز والفت الحاننا غريبة وفتنت أهل المدينة رجالا ونساء -

ولم يخل عصر من العصور ولا بيئة من البيئات في الامصار الاسلامية الى يومنا هذا من نساء نافسن الرجل في جميع حقول المعرفة مع وقار وصيانة وقد يخيل للناس أن المرأة المسلمة انحطت في المجموع بالنسبة للمرأة الاوربية ولكن مؤلف حضارة العرب الذي صنف كتابه عام 1880 أكد « أن خانة النساء المسلمات في عصره كانت أفضل من حالة اخواتهن في أوربة » وأنه اذا كان هنالك انخفاض في مستواهن فقد حدث « خلافا للقرآن لا بسبب القرآن » وزادت النهضة الحديثة المرأة المسلمة شعورا بمركزها الممتاز الذي خوله اياها الاسلام الذي ضرب المثل السامي فيه نساء كن رمز النبوغ والطهر والعفاف ازيد من ثلاثة عشر قرنا .

## عالمات المغرب وأدبياته في مختلف العصور

لعبت المرأة المغربية دورا بارزا في المجتمع في مختلف مراحل التاريخ واذا لم يكن هذا الدور ناصعا في كثير من الاحيان فانه لم يكن كذلك باهتا اذا لاحظنا ان الوسط النسوي المغربي الذي نبغت فيه عالمات شهيرات كان قبل كل شيء مدرسة للتربية ومعملا اقتصاديا فكانت المرأة ربة البيت وراعيته والمشرفة على الحقل والسوائم في البادية والصانعة الماهرة في الحضر والوبر وللمرأة حقوق اقتصادية اكثر مما للرجل لان الاسلام يخولها حق الاتفاق في البر من مال زوجها بينما يحظر على هذا التصرف في مال زوجته بدون اذنها وكانت المرأة في هذا وذاك محط احترام الرجل ومثار حبه الا في النادر بل ان بعض النساء اظهرن براعة ادارية ولباقة وحكمة جعلت منهن مستشارات لازواجهن الامراء والرؤساء وساهمت المرأة كذلك بحظ وافر في الاسعاف ورصد الاوقاف للمعوزين واقامة المعاهد ويكفي ان تعلم ان جامع القرويين انما اسسته فاطمة ام البنين بنت محمد بن عبد الله الفهري عام 245 هـ بينما اقامت اختها مريم جامع الاندلس الذي كان ينافس جامعة القرويين حوالي القرن الرابع الهجري وصار بعد ذلك اكبر فروعها

وقد نبغت في العهد الادريسي الاميرة الحسينى بنت سليمان النجاعي زوجة المولى ادريس الازهر الذي كان لا يفعل شيئا الا بموافقتها وكانت اليها المشورة في دولته (الدرر السنوية ص 8) وقد اشار محمد الكانوني في مخطوط له حول « شهيرات المغرب » الى بعض من نبغ من النساء فذكر عاتكة بنت الامير علي بن عمر بن ادريس زوجة الامير يحيى ابن يحيى بن محمد التي كان لها اثر في مصير السياسة المغربية وخروج الدولة من بنى محمد بن ادريس الى بنى عمر بن ادريس وكان الناس قد قاموا على زوجها الذي مات بفاس غما فاستنجدت هي بوالدها علي بن عمر صاحب صنهاجة وغمارة وغيرها من الريف الغربي فجيش الجيوش واخذت الثورة واسترجع فاسا عام 281 هـ وقد ذكر صاحب المعجب ( ص 41 ) ان في دولة الحموديين الادارسة لم يثبت

محمد بن ادريس الا بفضل رباطة جأش والدته التي كانت تقوى منته وتشرف على الحرب بنفسها .

وقد أشاروا الى ام الحسن بنت سليمان بن اصبح المكناسي تلميذة بقي بن مخلد كانت تنفرد به كل يوم جمعة لاخذ العلم في داره ( الذيل والتكملة )

وفي عهد المرابطين اشتهرت زينب النفزاوية الهوارية زوجة يوسف ابن تاشفين احدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة ولها بنى ابن تاشفين مدينة مراكش كما في « الاستبصار » وكذلك تميمه بنت ابن تاشفين التي كانت راجحة العقل جيدة النادرة ، جمعت ثروة اشرفت على ادارتها بنفسها وكان لها كاتب تحاسبه وهي تكنى أم طلحة وكانت مشهورة بالادب والكرم ذكرها ابن الابار في آخر كتابه في النساء وابن القاضي في (الجدوة ص 106) وقد لعبت قمر زوجة علي بن يوسف دورا في سياسة الدولة وكان الامير يدير كل الشؤون العمومية بإشارتها وكانت حواء بنت ابراهيم المسوفي تقرأ وتحاضر بالادب كما كانت اختها زينب تحفظ جملة وافرة من الشعر وكانت حواء بنت تاشفين من شهيرات نساء عصرها

وقد قامت فانو بنت عمر بن بنتيان بدور خطير في الدفاع عن الدولة اللمتونية فهي من البطلات التي يحق للمغرب ان يخلد ذكراهن فقد استماتت في الدفاع بحد السيف عن قصر الخلافة بمراكش وناضلت نصف يوم قبل ان يستسلم اسحق ابن علي ويدخل الموحدون الى العاصمة عام 545 هـ وقد أثار استبسال هذه العذراء اللمتونية اعجاب الموحدين في ذلك العصر

وفي أيام الموحدين درست أم هاني بنت القاضي عبد الحق بن عطية على والدها واخذ الناس عنها العلوم وهي والدة ابي جعفر احمد الاديب طبيب المنصور ولها تأليف في الوعظ والارشاد ( ابن عبد الملك ) وقد درست زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن علم الاصول على ابي عبد الله ابن ابراهيم امام التعاليم والفنون فكانت عالمة وذكر ابن عبد الملك انها ولدت بالاندلس وتزوجها ابن عمها زيد ابن حفص وكانت عالمة صائبة الرأي معروفة الشفوف على نساء زمانها ( الذيل والتكملة )

وحفصة الركونية كانت استاذة نساء دار المنصور بمراكش وكانت اديبة زمانها ( الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص 165 ) بل استاذة عصرها ( الاحاطة ) وهناك ايضا ام عمرو بنت ابي مروان ابن زهر طبيبة دار المنصور كانت تداوى نساء القصر واطفاله وكانت تستفتى في العلب ولها بنت هي ابنة ابي العلاء كانت عالمة بصناعة الطب والولادة وورقاء بنت ينتان الفاسية الادبية الشاعرة وهي طليطية سكنت مدينة فاس وتوفيت عام 540 (الجدوة ص 335 )

وأم العلاء العبدرية نزيلة فاس كانت تعلم القرآن بفرناطة وامة العزيز المسبئية

لها اشعار رائقة وام انجز العبدرية كانت مجودة بالسبع وروت عن ابيها صحيح البخارى وزينب القرقولية سمعت على ابيها وكانت ضابطة متقنة وكانت زوجة عتيق الغساني نزيل مراكش واغمات استاذة في القراءات السبع ( تكلمة ابن عبد الملك ) وام المجد مريم بنت ابي الحسن الغافقي الذي فتح مدرسة للغرباء في سبتة وحبس عليهم اول مكتبة بالمغرب قد درست الحديث ووصفها بالعجوز المسندة محمد بن القاسم السبتي في «اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سني الآثار» ( ص 5 ) وخيرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلاجلي امام أهل فاس في الاصول ولها الف العقيدة البرهانية على طريقة الاشعري .

ويقال بأن بنت المهدي بن تومرت حاربتة يوما كاملا بعد رجوعه الى تينمل من محاربة اللمتونيين لتبرهن له أنه ترك خليفة جديرا به فسر بذلك ( رحلة الوافد في اخبار هجرة النواند للفقير السيد محمد بن الحاج ابراهيم الزرهوني من تاسفت بوادي نفيس ) وهي اسطورة شائعة وان كان المهدي لم يعقب حسب روايات أخرى ونبغت في عهد المرينيين فاطمة وأم هاني بنتا محمد بن موسى العبدوسي وهما فقيهتان وأم البنين الفقيهة جدة الشيخ زروق وسارة الحلبية الفاسية وهي استاذة شاعرة من طبقة عالية في الادب توفيت بفاس حيث اجازت عبد الله بن سلمون ولها قصيدة اجابت بها ابن رشيد السبتي ومدحت في أخرى مالك بن المرحل ومن النساء البارعات صافية العزفية السبتية وهي من فضليات نساء عصرها في العلم والصيانة وصبح جارية الحكيم الجزنائي فيلسوف المغرب وطبيب وكاتب ديوان الانشاء في دولة ابي الحسن المريني لقنها العربية فنظمت الشعر ( جذوة الاقتباس ص 58 )

وست العرب بنت عبد المهيم الحضرمي السبتي اجاز لها ابن رشيد عام وفاته 721 هـ « ازهار الرياض » وامة الرحيم السبتية اجاز لها جماعة وام قاسم زهرة جدة الامام حسن المرادي الأسفي المعروفة بالشيخة

ولم تكن المرأة المغربية في هذه العصور تختلف عن المرأة العربية في شجاعتها ورباطة جاشها لا سيما في الصحراء او الجبال التي انبثق منها المرابطون والموحدون والمرينيون « وكانت قبائل بني مرين تخرج بجميع العيالات في الحرب كما وقع في الغزاة التي تقابل فيها ابو يوسف بن عبد الحق مع يغمراسن بن زيان في تلمسان حيث برزت الجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجوارى المولدات تقودها الرجال في احسن زي وأتم جمال ( الذخيرة السننية ص 146 )

ولما قامت عمارة مدينة فاس على السلطان عبد الحق المريني اقاموا محمد بن علي الجوطي اماما فبقي الى سنة 875 حيث عزله أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي وبقيت فاس في يد أخت ابن الحجاج الزهراء المدعوة زهور مع قائده الشكيري الى أن تولى الامير محمد المدعو الشيخ بن ابي زكرياء الوطاسي (الجذوة ص 131 )

وفي عهد الوطاسيين كان للسيدة الحرة صيت واسع في الميدان السياسي فقد وردت ترجمتها مطولة في مجلة هسبريس ( النصف الثاني لعام 1956 ص 222 ) وولدت هذه السيدة عام 900 هـ ودرست العلوم على عدة شيوخ ويظهر انها درست اللغة الاسبانية لان والدتها لالة زهرة اندلسية تزوجت على بن راشد قائد شفشاون عندما كان يجاهد وهو شاب في العدة وبذلك كان للسيدة الحرة نوع من الاستعداد للدور السياسي الذي لعبته فقد تزوجت على المنضرى وانتقلت معه الى تيطاون الى حيث وجدت وسطا اندلسيا مثقفا رقيق الحاشية كالذي ربيت فيه وكان زوجها في نضال مستمر مع البرتغاليين في طنجة واصيلا وكذلك في سبتة مما ساعد السيدة الحرة على لمس الدسائس السياسية التي كانت تحاك في ذلك العصر ضد المغرب وقد وهم كاتب المقال حيث اعتقد ان الست الحرة وعائشة أم ابن عسكر شخصية واحدة وهو خلاف ما يفهم من كلام ابن عسكر في ( دوحة الناشر طبعة فاس الحجزية ص 19 ) وقد نبه على هذا الغلط صديقنا الاستاذ محمد داود في « مختصر تاريخ تطوان » (ص 31)

وعندما مات المنضرى تزوجت مولاي على بن عمر الحسنى وولدت بنتا زوجتها لاحد حفدة المنضرى الذي كان والده قائدا في تطوان والذي عرفت كيف تنحيه لتجعل صهرها الشاب في منصبه وتستبد هي نفسها بالقيادة المطلقة في تطوان وبالجهاد ضد المسيحيين وكان لها بواخر تفرصن في الشواطئ الاسبانية كما كانت لها علائق طيبة مع الاتراك وسلطان فاس وفي عام 1541 تزوجت السيدة الحرة مولاي احمد الوطاسي الذي تركها في تطوان وكلفها بالاتصال بالبرتغاليين وكان لها تشاحن مع والي سبتة التي كانت تطمح هي الى احتلالها بينما كان الوالي البرتغالي يطمع في تطوان لترويج منتجات بلاده داخل المغرب .

اما تمدين السعديين فقد تم على يد العريفة بنت بنجو التي لقنتهم مظاهر الحضارة الملوكية لا سيما داخل القصور والبيوتات ( تاريخ الدولة المسعدية ص 25 ) وكان لمسعودة الوزكيتية والدة المنصور الذهبي عناية باصلاح السبل وعمارتها وتشبيد الحانات بالامكنة الحالية وبناء القناطر(اصلحت جسر وادي أم الربيع عام الف)وتجهيز اليتامي وتزويج الارامل وهي التي اسست مسجد باب دكالة بمراكش عام 965 ووقفت عليه نحو سبعين حانوتا وغيرها واقامت بازائه مدرسة للطلبة الغرباء ومكتبة وذخائر كتبت على بعضها بخط يدها والاميرة سحابة الرحمانية ام عبد الملك الغازي التي لعبت دورا كبيرا في حمل الخليفة التركي على اصدار امره لوالي الجزائر بمساعدة ولدها على استرجاع ملكه بالمغرب عام 983 وام كلثوم بنت الشيخ بناصر قرات الوغليسية في الفقه والبردة في السيرة والنساء الناصريات في درعة متعلمات على وجه العموم ولا نطيل بسرد اسمائهن .

وفي العهد العلوي طار صيت الاميرة خنانة بنت بكار المغافرية زوج المولى اسماعيل

فقد ذكر صاحب الجيش (ص 105) أنها حصلت العلوم وقد كتب على هامش الاصابة لابن حجر وكانت تصدر عنها ظواهر ومراسيم فى بعض الشؤون القبائلية فى عهدى مولاي اسماعيل وولده عبد الله وكان زوجها يستشيرها فى بعض الشؤون وقد قال عنها الرحالة الاسحاقى انها كانت لزوجها وزير صدق وبطانة خير

ومن النساء العالمات عائشة بنت بونافع الفاسية والدة عبد المجيد الزبى كانت تحضر مجالسه العلمية والزهرى بنت محمد الشرقى زوجة اليوسى كانت شىخة فقيهة اخذت عن زوجها بالاجازة جميع مروياته واخذ عنها ابن اخيها اللغوى محمد بن الطيب الشرقى وخديجة بنت عبد الله الحوات كانت تعلم النساء المنقطعات وسكينة بنت السلطان مولاي عبد الرحمن كانت طلعة للكتب والدواوين والفقيرة فاطمة زويتن وام قاسم الحسناوية ورقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الادبية الفقيهة العارفة بالعربية واللغة والتفسير والشعر والسيرة وأسرار الحروف والاسماء والتوحيد والبيان والصرف كان يدرس عليها الرجال والنساء مختلف الفنون - كما يقول الكانونى وكانت فى مجالس التفسير تتوخى اسباب النزول وعلوم القرآن وانساب العرب والتاريخ توفيت اوائل القرن الرابع عشر وصفية بنت المختار العالمة فى التجويد والتفسير والسيرة والنحو وكانت منتصبة للتدريس وهى شنكيطية ومثلها ميمونة بنت الشيخ محمد الحضرمى التى كانت راوية الاشعار ومشاركة فى العلوم واختها ربيعة التى كانت لها عارضة فى الادب والشعر نقادة للشعراء وهند زوجة ماء العينين المشاركة فى مختلف الفنون وخديجة بنت الامام محمد العتيق وكانت تبتد فى العلم عالمات عصرها بل وكثيرا من علمائه وقد نبغت فى الشعر فتاة فى شنكيط اسمها مريم كما فى « الوسيط فى ادباء شنكيط » ( ص 337 )

وفى اوائل هذا القرن كانت العالية ابنة الطيب بن كيران تدرس المنطق فى جامع الاندلس من وراء حجاب وكان لها ضلع فى مختلف الفنون واذا صدقنا رواية أحد طلبة القرويين الذين روى عنهم موليراسى حوالى 1895 نلاحظ ان غالب نساء فاس مثلا كن قارئات لهن الملم بالادب خصوصا قصائد الامام الغرناطى وكان النساء يحضرن دروس العالية بعد العصر والرجال وقت الظهر

ولا تكاد نحصى الاستاذات او النسوة المثقفات اللواتى كن يعشن فى حواضر المغرب وبواديه

وقد أشار صديقنا الاستاذ محمد داود فى « مختصر تاريخ تطوان » ( ج 2 ص 291 ) الى لا لا غيلانة فوصفها بالفقيهة الصالحة العاملة المزهدة واسمها «امنة ابنة الفقيه الصالح سيدى محمد غيلان وقد « علمها والدها القرآن والعربية والفقه والحديث فكانت عالمة نساء البلد صالحتهن تعلمهن أمور دينهن » توفيت عام 1189 هـ

وقد لاحظ كابريل شارمس فى كتابه « سفارة الى المغرب » ان البطلة البربرية

التي كانت تحكم قبيلة «ايت زدك الجبلية» والتي تسمى رقية بنت حديدو كانت تتقن الفروسية رغم بلوغها الستين سنة وقد هاجمت مرة تشكيلة فرنسية يقودها الجنرال ازمون الوالى العام للجزائر بالثيابة عن الجنرال شانزى ( ص 215 )

ومن الشيخات المواتى تلمذ لهن علماء مغاربة :

الشيخة الاستاذة الادبية الشاعرة سارة بنت احمد بن عثمان بن الصلاح الخلبية لقيها عبد الله بن علي ابن سلمون الكتانى بفاس فأجازته واليستة خرقة التصوف وأنشدته قصيدة أجابت بها ابن رشيد السبتي وقد اثبت ابن القاضي فى الجدوة ابياتا منها ومدحت امراء الاندلس ورؤساء سبته وشعراءها ( جذوة الاقتباس ص 245 و 324 )

وشهدة بنت احمد بن الفرغ الابدية ذكرها صاحب الجدوة فى شيوخ محمد بن عبد الرحمن التجيبى الاشبيلي وهو من الواردين على المغرب .

وقد سمع أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الشارقي البلبسى نزيل فاس من كريمة المروزية ( الجدوة ص 68 ) .

ومن شيوخ ابن بطوطة فى بغداد الشيخة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل على بن على بن ابى البدر ( الرحلة )

وكان النساء المغربيات يخرجن لاستقبال العلماء ويحضرن جناز الائمة الكبار ولما قدم سيدي ابو جيدة من المشرق خرج أهل فاس كلهم للقاءه الا من شذ فكان الرجال فى ناحية والنساء فى ناحية أخرى فسأل عن النساء فقيل له خرجن فرحا واجلالا لك ( السلوة ج 3 ص 90 )

كما كان النساء يحضرن دروس العلوم كدروس شيخ الاسلام محمد الطيب ابن كيران وكن ينتفعن به لسلاسة عبارته وفصاحة لسانه ( السلوة ج 3 ص 2 )

وذكروا أن شيخ الاسلام وحافظ المغرب عبد العزيز بن ابى عمران العبدوسى الفاسى كان الناس يتسابقون الى المواضع فى مجلس درسه قبل أن يصبح رجالا ونساء وفى خارج المسجد أكثر ( نيل الابتهاج لاحمد بابا السودانى ص 158 )

وقد حكى مولييراس فى كتابه « المغرب المجهول » أن للمرأة فى الريف نفوذا كبيرا على الرجال فهى الآمرة الناهية كما هو الحال فى كثير من الاوساط الاسلامية سواء فى المغرب أم فى تونس والجزائر وقد وهم الاوربيون الذين يظنون ان المرأة المسلمة تعيش تحت رحمة زوجها ( ص 133 - 134 )

وفى بعض القبائل الريفية مثل قبيلة بنى بشير ما زال النساء يتكلمن بتمازيغت



اسرائيلية بالزى البدوى

فى حين أن الرجال يستعملون العربية لقربهم من جبالة وتمتاز المرأة بالشجاعة وهى نساجة ماهرة وتشتغل بالاعمال الفلاحية كما تتسم بطهرها البالغ ولعل الرجال أقل بسالة من النساء فى هذه الجهة

والمرأة سافرة فى معظم الريف أما فى جبالة التى تتكلم بالعربية - باستثناء بعض المناطق الغمارية - فان المرأة تتنقب مستعملة الحمار التلمساني فى فشتالة وبنى ورياغل وسلاس وجاية وبنى سميح والويل كل الويل لمن خاطب امرأة فى الطريق ويعذب الزانى فى بنى زروال حيث يطوف فى الازقة وتفقا عيناه بحديدة محماة أما الزانية المحصنة فانها تحمل بعد التطواف الى اكبر سوق فى القبيلة بحيث تلفظ نفسها الاخير تحت السياط واذا استمر تعذيبها الى الشفق أطلقت رصاصا فى رأسها لجعل حد لعذابها ويجرى نفس العذاب على سارق السوائم المتى تسرح بدون راع فى الجبال

والمرأة الريفية جميلة ولود قد أحصى لبعضهن خمسة عشر من الاطفال ولا يحب الريفيون النسوة العاقرات فاذا طلقت المرأة لعقمها لم يعد لها أمل فى الزواج ومع ذلك فالاعراض مصنونة فى الريف كل الصيانة ويذكرون أن لبنى ورياغل غيرة فائقة على نسائهم وانهم لا يسمحون لاجنبى أن يوجد حتى عن طريق الصدفة بالقرب من نسائهم فاذا رأى الرجل امرأة فعليه أن يبتعد عنها دون أن يتبعها النظر والا تعرض لنيران بنادق اقاربها وكذلك الامر فى القليعة وهى جانب من صحراء الريف حيث لا يتمازح مع عرض النساء « والمرأة الورياغلية رائعة الجمال وكذلك الرجال والمرأة هى المشرفة على الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ويعمل تحت امرتها مرتزقة اجانب .

وفى مثبوة تمتاز المرأة بحسنها الرائع وهى تتزوج فى الغالب بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وقد أكد مولييراس الذى الف كتابه عام 1895 أن الصداق بلغ أحيانا خمسة الاف فرنك .

وكانت توجد فى الريف أسواق مخصصة للنساء لا يشاركهن فيها رجال كالسوق الذى ينعقد فى سيدى مالك فى قبيلة بقوية وكسوق مريسة

ولكن توجد فخذة فى الريف هى بنى عروس تزاوّل فيها المرأة الرقص ولا تهتم هذه القبيلة كلها الا بالموسيقى حيث لا تسمع سوى نغمات المزمار ورنات الاناشيد

وفى تمسمان تجرى عادة « الكرنفال » - وهى عادة لا تعرف فى باقى ربوع المغرب وتشارك المرأة فى تماثيلها الشعبية التى لا يخلو بعضها من اسفاف (مولييراس) ص 107 )

وفى بنى توزين تضرب الامثال بجمال المرأة التى هى فى نفس الوقت شجاعة تشارك الرجل فى المعارك وتنجز الاشغال الشاقة بنفسها وتحصد وتحطب وتسقى وتفلح الحقل وهى تلبس الحايك وتغطى سيقانها بجلد كالجورب وهى عفيفة ولود تقوم

وفى الدسول ( لا التسول التى توجد بناحية تازة ) تساعد النسوة المتحجبات ازواجهن فى نسج الملبوسات وصنع القفاف والقبعات وحصر الحلفة بينما يحتكر الرجل صنع البارود لغلبة الروح العسكرية فى الجبل ومن الظواهر الملحوظة فى جباله ( وسوس ) عدم نياحة النساء على الموتى الذين يشيعون عادة بالمزغاريد وهذا التجلد الصامت عند المرأة الجبلية ينم عن قوة نفسية وعن رباطة جأش وتبسط الموائد فى مثل هذه الحالة طوال أربعين يوما وليلة تذوب خلالها تركة المرحوم

وفى بنى مسارة كذلك ( حول وزان ) كانت الكنتايب دائما تتوافر حيث يختلط الذكور والاناث وفى الساعة الرابعة من كل يوم تنصرف كئائب من الرجال ( بين 50 و 150 شخصا ) لتتدرب فى كل قرية على لعب الكرة والرماية والمسابقة وتوجد فى كل مركز قروى زاوية للرماة وهى عبارة عن دار للسلاح فيها بنادق الجماعة وبارودها وتجري التمارين كل يوم خارج القرية تحت امرة كبير الزاوية الذى هو القائد الاعلى للرماة المتراوحة أعمارهم بين 15 و 70 سنة وعند عودة هؤلاء فى المساء تسمع رنات الطلقات النارية متجاوبة مع زغاريد النساء اللواتى ينتظرن أزواجهن وأولادهن على عتبات الدور !

وهذه الزوايا العسكرية كانت منتشرة من طنجة الى وادى درعة ( وبالاخص السوس والحوز )

ومن خواص الزواج فى جباله أن العروس تقضى أسبوعا كاملا متنقلة بين دور أقاربها صحبة ثلة من صواحبها فى ثياب بيض متقنعة من الرأس الى الاخصم وخلال هذه الايام تقام حفلات وماآدب فى كل مكان حلت فيه وفى اليوم السابع تنتظر وصول الوفد الذى يزفها الى الزوج وسط موجة من الطلقات النارية

وطوال اسبوع لا يختلى الزوجان الا نحوا من ساعة فى كل ليل ثم يعطف الزوج نحو اصدقائه ليقضى بقية لياليه فى السمر وتعود الى الزوجة صديقاتها

وتجري حفلات الرجال والنساء فى جناحين منفصلين من المدار حيث تقضى العادة بالموت المحقق لمن تسول له نفسه الاقتراب من ملاعب النساء

ومن مهام المرأة هنا تربية دود القز وصنع الحرير واصداره الى كل من مراكش وفاس

وفى القبائل المحاذية لتطاون تلبس المرأة المتزوجة قبعة واسعة مصنوعة من سعف الدوم وكذلك الفتاة عند ما تبلغ العشرين من عمرها ولو كانت غير متزوجة وتدير النساء القاطنات فى قمم جباله « الترابق » الجلدية على سيقانهن لاتقاء لذغات الافاعي

ومن الغرائب فى جباله أن الحامل تضع وهى واقفة وتنظم الحفلات الصارخة اذا

كان المولود ذكرا أما اذا كان بنتا فانه لا عقيقة ولا ضحية ولا زغاريد ولا طلقات نارية  
وهى عادة غريبة متغلغلة فى الجاهلية الاولى

وفى قبيلة بنى احمد السرق حيث تتوفر الكتابيب القرآنية ويتوارد الطلبة  
من طرابلس والجزائر وتونس وكورارة ( لانها قبيلة مشهورة بالبركة فى العلم ) يتعاطى  
معظم السكان - رجالا ونساء - العلم كما يساهم الجنسان فى صناعة المصابون  
والحصر والزرابى والمخالى والاطباق

ومن هذا العرض يتضح أن جباله التى تعتبر مساحتها ضعف مساحة المريف  
وتحتوى على اثنتين وخمسين قبيلة فى وسعها أن تجرد ثلاثمائة الف جندى لمحاربة  
الدخلاء الاوربيين كانت دائما مضطرة لان تترك للمرأة الاعمال الاقتصادية والمنزلية  
لينصرف الرجل بكليته الى الفروسية والرماية استعدادا للطوارىء .

وهو يعطينا صورة عن اسهام المرأة البدوية فى الحركة الفكرية النسوية ومزاحمتها  
للمرأة الفاسية التى ذكر السخاوى فى « الضوء الملامع » عشرات من الامثلة عنها

## فى الاطلس والصحراء

ولعل من العسير - رغم وحدة الاعراف على وجه العموم فى مجموع افريقيا  
الشمالية - استقراء جزئيات الاعراف البربرية لقلة الوثائق التى يمكن الاعتماد  
عليها تلك القلة الراجعة لكون اللهجات البربرية لا تكتب اللهم الا عند التوارك حيث  
توجد حروف تيفيناغ ويلاحظ أن النساء يعرفن وحدهن الكتابة عند هؤلاء البربر  
وهن قلائل على أن هذه الوسائل لم تستعمل لنقل نصوص العرب أبأ عن جد وحتى  
فى القبائل البربرية التى تستعمل اللغة العربية لم يسجل سوى الميسير من الاعراف  
( باستثناء ناحية مزاب )

ويتصل جانب كبير من العرف بالمرأة التى يحظر عليها مثلا - مهما يكن سنها  
ومستواها الاجتماعى - أن تكون عضوا فى الجماعة حتى ولو سمح لها بأن تكون  
على رأس عائلة بدلا من الرجل وليس معنى هذا أنه ليس لها حق اسماع صوتها  
واقناع الجماعة بمشاطرتها الرأى فذلك كثيرا ما يقع لاسيما اذا كان للمرأة تأثير  
فى المجتمع وربما ناب عن المرأة فى ابلاغ رأيتها الى مجلس الجماعة أحد أعيان القبيلة.

وهناك ما يسمى عند البربر بالمزرك وهو شبيهة بالاجارة عند العرب أى الرابطة  
النتيجة عن اتفاق حاصل بين فرد من الجماعة وفرد آخر أجنبى عنها فالحامى أو  
المجير يسمى الزطاط والمجار أمزودر وهذه الوثيقة تفرض على مجموع القبيلة حماية  
الاجنبى بل ان المسؤولية الجماعية تقوى اذا كان الشخص المجير امرأة

والمرأة البربرية محرومة من الارث وحتى فى المناطق التى يجرى فيها العمل بالفقه المالكي تقع تحبيسات أو أنواع خاصة من الشفعة للحيلولة دون انتقال حقوق المرأة العينية الى الرجل الاجنبى فحرمان المرأة من الارث لا يقصد منه معارضة حكم الاسلام وانما هو ناتج عن الخوف من تسرب الاجانب الى الملك العائلى

أما الزواج فانه يصطبغ سواء عند البربر أم عند العرب المسلمين بصيغة مقدسة ولا ينطوى على اية فكرة للتملك كما يزعمه الاجانب الذين ياخذون على الاسلام احتقاره للمرأة واعتبارها ملكا سائغا للرجل وقد اشاد سوردون بنفوذ المرأة فى المغرب عند الامازيغيين ( المؤسسات والاعراف عند البربر ص 218 ) واذا استثنينا الارث وجدنا ان المرأة البربرية تتمتع بحقوق منها أن تكون ربة البيت وأن تتبنى أجنبيا وتلحقه بالقبيلة وان تحمي الاجانب ولها حق الفرار اذا لم ترض بزوجها مثلا فله هو حق الطلاق ولها هى حق الفرار وتقوم بدور الخطبة جماعة من ستة الى اثني عشر فردا من اقرباء الزوج يكونون فى نفس الوقت شهودا فى العقد وتقدم هذه الجماعة قربانا الى الوالد فاذا ذاق منه بمحضرها يعد قبولاً واذا رفض الاكل أو بادر بذبح كبش فان ذلك يعد منه رفضاً للزواج أو تحفظاً على الاقل وبالقبول تبتدىء عملية الاملاك « اسرورت » ويرسل الخطيب هدايا الى نساء خيمة زوجته ويطلب رأى الزوجة اذا كانت ثيبا فاذا كانت بكرا اكتفى نظريا برضى الوالد ولكن بما ان الزوجة تتمتع بحق الفرار اذا زوجت عن غير رضى منها فان اهلها يطلبون نظرها عمليا والمرأة البربرية سافرة اللهم الا فى بعض المقاطعات فى الشمال والجنوب حيث تستتر المرأة بيديها أو تستدبر الاجنبى اذا مر فى الطريق

وعند وفاة الزوج يمكن لورثته التعرض لزواج أرملته اذا كان الهالك قد سلم صداقا لوالد الزوجة ويسمى هذا الصداق « عتيق » ولهم أن يصروا على هذا التعرض الى أن يحصلوا من الزوج الجديد على نفس المبلغ ولا يعترف العرف بالزواج الواقع غلطا ولو أدى الى حمل لان فى ذلك اخلالا بمصالح الجماعة وتهديدا لوجودها السياسى والاجتماعى وحتى فى حالة الطلاق يتعرض الرجل فى زواج مطلقة الى ان يحصل من الزوج الثانى على نفس مبلغ « العتيق » وله أيضا ان يتعرض فى زواجها من اشخاص معينين اذا ثبت لديه أنه كان لها بهم علائق أئيمة .

وهناك قبائل تجرى فيها زواجات جماعية أولا يدفع فيها عتيق ففى آيت يزة ( آيت حديدو ) مثلا ينعقد موسم يستمر من 23 الى 25 شتنبر من كل سنة تحضره جماعات من الفتيات أو الارامل أو المطلقات (فى كل جماعة نحو سبع أو ثماني نسوة) لابسات اجمل حللهن فاذا وقع اختيار رجل على احدهن خاطبها فتجيب بالقبول أو تدير رأسها علامة النفي وكذلك الامر فى موسم تزروالت ( سيدى احمد وموسى )

أما فى آيت عيشة وبعض قبائل ازبلال فان الزوج لا يدفع العتيق بل العتيق ممنوع



رجل من زموور الشلح

فى ءايت شخمان ( ءايت داوود ) وانما يدفع الزوج وعائلته هدايا للزوجة واغيرها وعلى هؤلاء ارجاعها للزوج عند انحلال العصمة باطلاق أو الموت واذا ذنت المرأة فعلى مشاركتها فى الجريمة أن يؤدى الى الزوج - حتى ولو لم يكن قد دفع العتيق - مبلغا برسم الدينة والا فسخ الزواج ولو بعد المدخول والمرأة الايم ( تجالت ويقال هجالة فى حواضر المغرب) تتمتع بحرية كاملة بل يقال بان فى ءايت حديدو مثلالتزوج الفتيات ويحصلن بالخلع على الطلاق ليصبحن ايامى وتجبر الأيم فى كثير من القبائل على التزوج باحد اخوة الهالك ولا يسمح لها بالتزوج بغيرهم الا اذا عدلوا عن الزواج بها ويحظر الزواج باشخاص يمارسون بعض المهن كالحداة والبهلوانيين ( الحلايقية ) والباعة الجوالين والعبيد لعدم استقرارهم فى القبيلة وفى حالة الزواج بالاجنبى المقبول فى القبيلة يتم الاتفاق على عقدة للزواج واشغل معا

والبربرى لا يتزوج عمليا الا بامرأة واحدة لاسباب منها الفقر وتعذر العول والمرأة مساعدة لزوجها تشاطره حياته الشاقة والعسكرية وتساهم فى أعمال الحقل والهجرة حسب الفصول وعند شبوب الحرب تقوم المرأة بتموين المجاهدين بالطعام والعتاد حتى فى الصفوف الاولى للقتال وتحض المرأة الرجال على الصبر والمصابرة واذا فر مجاهد من ساحة العراك تسم النساء جلبابه بالحناء فيصبح مسخرة الجميع لان المرأة تفضل أن يموت الرجل عن شجاعة واستبسال كما هو الحال عند العرب

والمرأة المعتدة تلبس البياض وحذائين من لون ناصع ويعترف العرف للمرأة بحق فسخ الزوجية باقرار عند اجنبى وذلك عند اضرار الزوج بها أو عدم انفاقه عليها والواقع أن الزوجة تفر عند ما تصبح حياتها الزوجية غير موافقة ولا يترتب عن هذا الفرار الطلاق البائن الا اذا تكرر الهروب ثلاث مرات فعند ذلك تعلن الجماعة الطلاق وعند غياب الزوج سنة كاملة يصبح من حق المرأة أن تطلب من الجماعة اعلان فسخ الزواج وعلى زوجها الجديد اداء ثلثى العتيق الى ورثة الغائب .

اما بسوس فان وضع المرأة لا يختلف عنه فى باقى النواحي البربرية عفافا ونشاطا واحتراما عند الرجل فالمرأة ربة البيت ترعاه وتتحمل جميع اعبائه الاقتصادية والاجتماعية

والحجاب غير موجود فعليا وانما هو فى الغالب حجاب بدوى لا يعدو ستارا من الحياء يجعل المرأة تتحاشى الرجل ما أمكنها أو تغطى وجهها بذيل رداؤها عند مقابلة الرجل وتوجد كما فى الشمال أسواق خاصة بالنساء مثل أسواق حاحة وسهول شتوكة وهناك أسواق تخصص فيها أحنحة للنساء لعدم اختلاط الجنسين والمرأة هى التى تتكفل بشراء وبيع بعض المواد كالصوف والحناء والفواكه والبيض وهى التى تسمد الحقل ويجتمع النساء لنقل الاسمدة فى قفاف على رؤوسهن ويكتفى الرجل بزوجة واحدة وتعيش العائلة فى منزل واحد مهما تشعبت بزواج افرادها وتسرى

روح النشاط من السوسيين الى نسائهم وقد ذكر البكري في مسالكة في القرن الخامس « أن أهل السوس وأعمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب ( ص 163 الجزء الخاص بالمغرب )

ووضع المرأة البربرية ليس واحدا في جميع مناطق افريقيا الشمالية

فحالة المرأة الاباضية في مزاب على خلافها في الاطلس فالزوج لا يخرج زوجته خارج منطقة مزاب بل محظور عليه ان يدخل امرأة اجنبية الى هذه المنطقة وللزوج أن يمنع زوجه من الخروج ولكن عليه ان يجالسها في الدار ويسكنها في محل صالح ولا يتزوج الرجل الا بواحدة لان في وسع زوجته منعه حتى بالتسرى ولها عليه كسوة الصيف والشتاء والحمار والاحذية والمشط والكحل والحناء واذا حرمها من ثياب الشتاء مثلا وقع جلده وليس من حق الرجل أن يفرض على زوجته النسيج أو المعجن أو الطحن أو غسل الثياب ولكن على الزوجة اعداد طعام زوجها الشخصي ولو كانت لها مائة خادمة وليس للمرأة حق الفرار ولكن لها رفض بعض انواع الزواج أو اشتراط حق الطلاق في العقد وهنالك عادة في مزاب شبيهة بما عند « القبائل » الجزائرية وهي منع الطلاق من الزواج لانها تظل على « رقبتة » ويجبر على الانفاق عليها لهذا يضطر غالبا الى رفع الحجر عنها وكان الصداق في مزاب لا يعدو قبل الحرب الاخيرة 750 فرنكا للغنى والفقير

وعند المزابيين ما يسمى بالغسالات وعددهن خمس في غرداية مثلا حيث يتم الوفاق على تأليف مجلس « حلقة الطلبة » وهن يتحكمن في النساء ويفرضن عليهن نظاما عرفيا خاصا ويحرسن من غاب زوجها وهن في الغالب قارئات كاتبات باللغة العربية يعقدن مؤتمرا سنويا عاما ويصدرن احكامهن فيه على النسوة المجرمات ويسهرن على الاعراف التقليدية

وللمرأة في الاوراس حق الاتفاق مع من تريده زوجا لها ليختطفها وذلك بلفه في برنسه ونقلها أمام الناس الى منزل وانديه ويطبق هنا المذهب المالكي في كثير من الامور التي تهم المرأة وعلى المرأة في الاوراس نقل الاسمدة الى الحقل والفلح وتربية السوائم وغزل الصوف وصنع أواني الحزف واعداد الجلد وتجفيف الفواكه والحضر وصنع القطران وجعل المرأة بالغزل يمكن أن يعتبر سببا في الطلاق

وفي جزيرة جربة بتونس كان يحظر على النساء الخروج من الجزيرة كما يحظر على الرجل ادخال اجنبية اليها والجريون اباضيون مثل أهل مزاب وبرابرة جبل نفوسة في طرابلس الغرب وسكان جربة متدينون جدا ويوجد في جزيرتهم 284 مسجدا علاوة على عدة قباب وأضرحة .

وعند التوارك ( توارك لتركهم الاسلام مرارا او لانهم ينتمون لثاركة احدي

قبائل صنهاجة المثلثين ) تتقن المرأة وحدها الكتابة غالبا وحظها في الميراث مثل حظ الرجل والعفاف قليل والولد ينسب الى أمه والمرأة تطلق زوجها وتزوج نفسها والرجل هو الذى يتلثم وتعزف المرأة على العود وتشتغل بالموسيقى

أما فى شنجيط فان المرأة محترمة وقد ذكر صاحب الجاش الربيط ( ص 37 ) أن المرأة سيدة البيت لامراقبة عليها من زوجها والرجل بمثابة الضيف ولا تباشر الخدمة بنفسها « وتمتاز نساء الزوايا بالقراءة فهن يشاركن الرجل فى التعليم والاشتغال بالفنون مع الصيانة وعدم الابتذال واذا نزل بهن الاضياف فى غيبة الرجل يحسنن اليه ضاربات المثل القائل بانه ان كان الاسد يقتل فاللبوة تقتل كذلك والاغلب فى شنجيط عدم الاحتجاب « اما نساء الزوايا فكثير منهن يحتجبن تدينا « ولباس المرأة بسيط تلتحف بثوب عريض طويل تشتل ببعضه كقميص وتجعل الآخر فوق رأسها ثم تجعل طرفه امامها وترمى جانبه الاعلى فوق منكبيها وهذه هى الملحفة أو الملاءة العربية ولا تكون الا من الكتان الاسود وربما يأخذ بعضهم مرطا بدون اعتبار الصنف واللون وربما تجعل تحت الملحفة شعارا كالقميص ولباسهن هذا لا يتبدل كيفا ولا كما والصغيرة تستعمل اللباس كيفما اتفق ويعتنين بكل أصناف الزينة حليا وطيبا وخضابا ويرتبين استعمالها على سنين كل سن وما يناسبه ولهن مهارة عجيبة فى ضمير الرأس على حسب السنين واحسن الخلى خرز من الحجارة النفيسة مختلفة الالوان لا مثيل له بالبلدان الاخرى ويلبسن أساور منمقة بالفضة وتصنع من شجر أسود اللون وهى تساوى أساور الذهب والفضة ولا يغنى عنها النقدان ان وجدت .

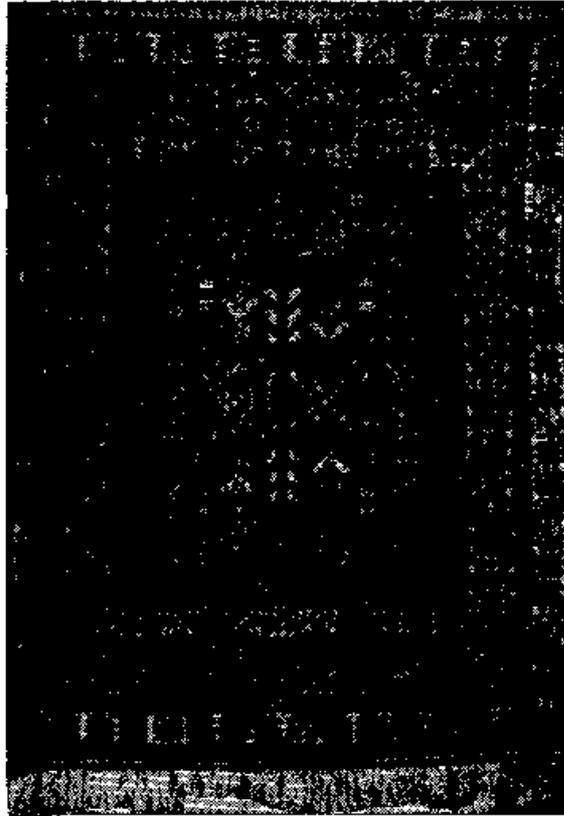
تلك أعراف يرجع وجود بعضها فى المغرب لعوامل اقتصادية وللنصرة القبلية والعصبية الجماعية التى كانت متغلغلة عند البربر والتي زادها الاستعمار تشعبا والآن وقد أعلن الاستقلال وتمت وحدة البلاد وعاد القضاء الاسلامى الى مناطق العرف أصبح من السهل استئصال رواسب الجاهلية لا سيما فى خصوص حرمان المرأة من الارث مع الاحتفاظ بما يوافق روح الشريعة والعرف الصالح

ويمكن أن نستخلص من هذا العرض الطابع العام الذى كانت تتسم به المرأة فى المغرب حاضره وباديه وهو مزيج من النشاط والحيوية والصون مع ثقافة نسبية فى كثير من النواحي ونفوذ حاسم فى العائلة ودور اجتماعى واقتصادى يبلغ احيانا منتهى الخطورة واحترام مطلق عند الرجل حتى فى أقصى قمم الجبال .

وقد أفاد المغرب من حركة الانبعاث التى انبثقت من الشرق العربى أول هذا القرن فكادت المرأة المغربية تستعيد ما كان لها من سالف عز فى الحقل الفكرى لولا طرود «أفة الاستعمار على هذه البلاد وقد تبلور هذا الطموح الشعبى قبل الحماية ( عام 1326 الموافق عام 1908 ) فى مشروع الدستور الحفيظى الذى قرر احداث مدارس

للبنات في كل بلدة وقرية وذلك في مرحلة اولية ويتما يتھيا الفوج الكافي لفتح معاهد ثانوية نسوية .

وبالرغم من الدسائس الاستعمارية توفقت الحركة الوطنية تحت رعاية جلالة الملك وتشجيعه لتنظيم التعليم النسوي في المدارس الحرة ثم انشئت مدارس رسمية للبنات وخصص لهن قسم في جامعة اقرويين تخرجت منه بعض العالمات لاول مرة في تاريخ المغرب وتأسست جمعيات نسوية مختلفة وتطورت الحركة بعد الاستقلال بمؤسساتها الاجتماعية وجمعياتها الاسعافية تحت اشراف زعيمة النهضة النسوية الاميرة لالة عائشة ومساهمة اخواتها الاميرات والمغرب مقبل على انبعاث نسوي يشمل جميع طبقات الامة ولنا كل اليقين في ان تتحقق هذه النهضة في دائرة المبادئ الاسلامية بفضل العناية الخاصة التي يوليها صاحب الجلالة نصره الله لمستقبل المرأة في هذه البلاد



زربية من صنع الرباط  
وهي من أجمل البسط  
المغربية

## رسالة الاوقاف الاسلامية

تتسم الاوقاف في المغرب باهمية كبرى نظرا للدور الاجتماعي الخطير الذي ينتظر منها القيام به علاوة على مهمتها الدينية .

وقد عرفت الاوقاف في العالم الاسلامي ازدهارا خاصا، ولعبت في مختلف العصور دورا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا كان له اثره في تكييف الاجهزة المسؤولة في الدولة ، وتخفيف الوطأة الى حد بعيد على الميزانية العمومية .

ولن نتحدث في هذه العجالة عن ماهية اوقاف وتعريفاته القانونية ، واطاره الشرعي وما اثير حول ذلك من خلافات تند احيانا عن روح الموضوع واهداف المشروع التي هي اهداف انسانية في ذرائعها وغاياتها . وانما اريد ان ارسم لوحة مصغرة عن المظاهر التي اتسمت بها هذه المؤسسة في مختلف الاعصار والامصار الاسلامية .

لقد تذرغ المغاربة منذ انبثاق فجر الاسلام بهذه البلاد - بشتى الوسائل لتركييز الفكرة الاسلامية وتحقيق ازدهار المسلمين في آن واحد بواسطة « رباع » توقف على المؤسسات الدينية والاجتماعية وقد ساهم الملوك والشعب في هذه الحملة الدينية الاسعافية التي كانت تتخذ مختلف المظاهر لتحقيق غاياتها واذا راجعنا دفاتر الاحصاء الحبسية لاحظنا أن الاوقاف كانت تتوفر في جميع انحاء القطر على حسن الاراضى والعقارات وحتى على السوائم الحية في الجبل علاوة على الغراسات الشرية وقد وقع تفويت جانب كبير من الاراضى الحسبة الشاسعة والاملاك المختلفة في ابان الحماية ولا تزال صكوك تحبسيها موجودة الى الآن .

وقد تبلور الاتجاه الحبسي على الخصوص منذ عهد المرينيين حيث اقام ابو يوسف المارستانات للغرباء والمجانين واجرى عليها النفقات وخصص لها الاطباء وبنى المدارس ورتب فيها الطلب لقراءة القرآن والعلم واجرى لهم المرتبات في كل شهر وبنى المزوايا في الفلوات واقف لها الاوقاف الكثيرة لطعام عابري سبيل وذوى الحاجات « الذخيرة

السنية ص 100 ) ، وسار الملوك بعد ذلك على منوال حثيث في هذه الطريق الجديدة حتى انشأ ابو الحسن « في كل بلد من بلد المغرب الاقصى وبلاد المغرب الاوسط ( الجزائر ) مدرسة فقامت مؤسساته الاجتماعية في تازا ومكناس وسلا وطنجة وسبتة وأنفا ( الدار البيضاء الحالية ) وازمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير وتلمسان وعاصمة الجزائر ( المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق ص 35 مجلة هسبريس عام 1925 ) .

ولم تكن اية مدينة من المدن لتخلو من عائلات خصصت قسطا من املاكها للاسعاف الاجتماعى وهى الاوقاف المعينة على الحبز مثلا الذى كان يوزع اسبوعيا أو يوميا حسب أهمية الارياح هذا علاوة على الاوقاف الخاصة بالمساجد والمرستانات ومعاهد التعليم التى كان يتعیش منها عدد كبير من المستخدمين زيادة على رواتب العلماء والطلبة واذا اعتبرنا ان كل مدينة مغربية كانت تتوفر فى كل حى من احيائها على عدة مساجد باوقافها لمسنا ضخامة الثروة الحبسية فى المغرب ويكفى ان نعلم ان فى فاس وحدها احصى فى زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين ( I ) 785 مسجدا و 42 دارا للوضوء و 80 سقاية عمومية و 43 حماما ، ( زهرة الآس ص 33 ) وكلها حبسية - وكانت فى المغرب أوقاف من نوع خاص (2) كالتى تصرف على الزوجين الفقيرين بايوائهما مجانا فى منزل مؤثث ابان الزفاف وكالتى تنفق فى تجهيز العروس المعوزة واوقاف الاواني المكسرة وتمهد وتغذية الحيوانات والطيور ( كدية البراطيل بفاس ) وذلك بالاضافة الى تاسيس الاسوار والقناطر والقنوات والسهر عليها والمثبه هنا

---

(I) وذكر ابن القاضى فى الجذوة أن مساجد فاس كانت قبل انيوم 785 وأما اليوم ( عصر المنصور السعدى ) فلا تحصى كثرة وعدد حماماتها قبل انيوم 93 وأما اليوم فلا عدد لها ( ص 28 ) .

(2) وكانت هنالك أحباس من نوع خاص فى كل من المغرب والاندلس فقد ذكر صاحب نشر المثنى ان من احباس جامع الاندلس قراءة التفسير بالفخر الرازى (جI ص20) وان كراسى العلم فى التفسير وقراءة صحيح مسلم وابن الحاجب وصغرى السنوسى والرسالة ونظم ابن زكرى لها أحباس (جI ص38) ومن أحباس فاس استيفاء ابن حجر على الصحيح فى التدريس ( نيل الابتهاج ص 169 ) وكان بعض العلماء لا يأكلون من مال الاحباس مثل سيدى عبد القادر الفاسى (السلوة جI ص310).

ملحوظ بين المغرب والشام حيث توجد نفس الانواع من الاوقاف (I)

ويمتاز المغرب ومصر بصندوق حبسي للقرض بدون فائدة وكان موجودا بفاس

وأهم ما يسترعى نظرنا في هذا الهيكل المحكم ، هو ان الوقف لم يتخلف تقريبا في اقليم من الاقاليم التي غزاها الاسلام ، بمبادئه السامية ، وتشريعاته المثالية ، فحتى في اقصى بخارى والتركستان تفرعت الهيئات الحبسية ، وتضخمت مواردها طوال قرون الى ان انهزم التتر فاغتصب الروس هذه الاموال واستمرت الحال على هذا المنوال الى ان قرر الحزب الشيوعي عام 1921 تامين الاوقاف - باستثناء ما يمس المساجد - وتسليم الاراضي الحبسية الى الفلاح المسلم وغير المسلم ، او تحظير كل وقف جديد

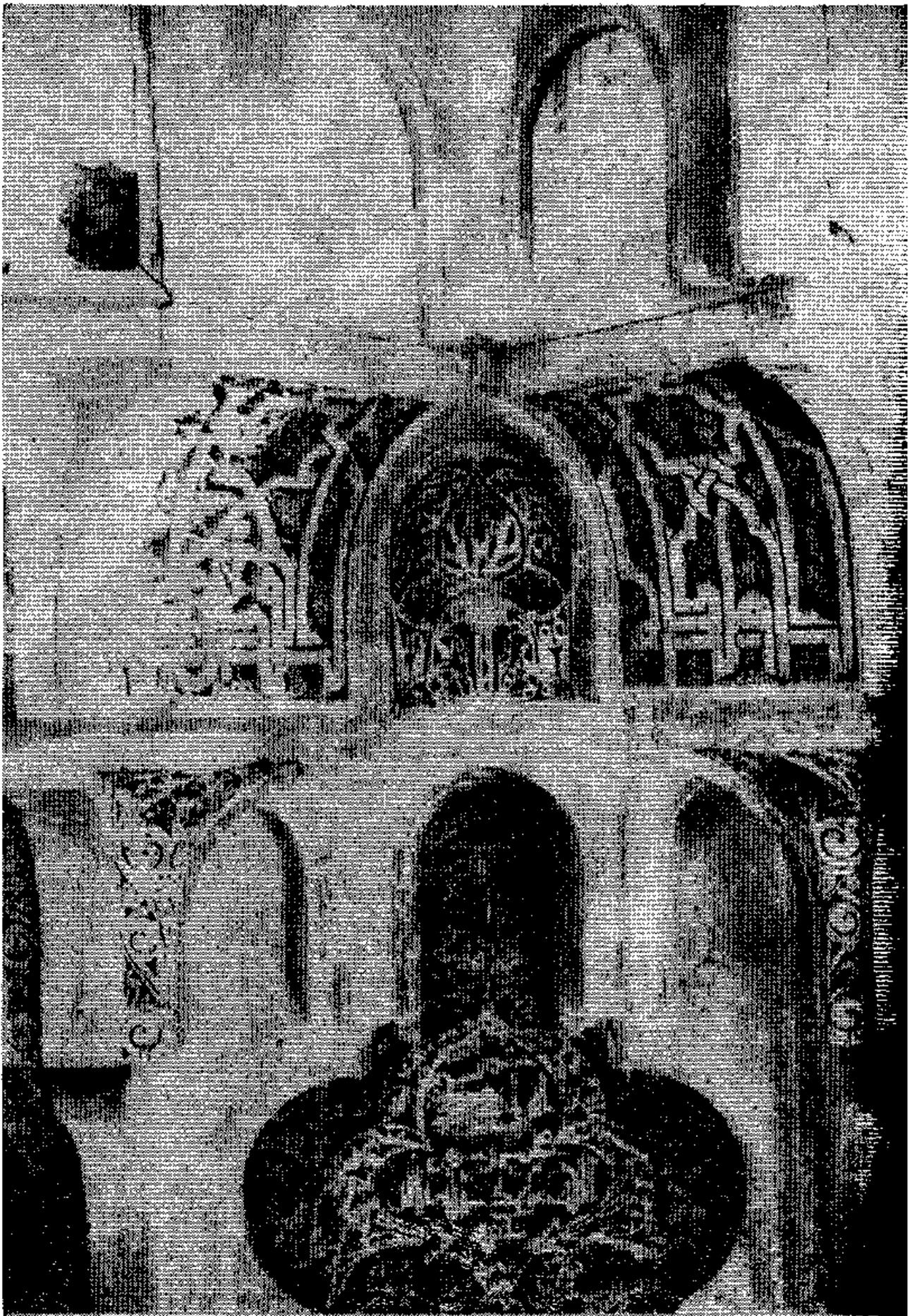
وفي الافغان أهم الامير عبد الرحمن الذي توفي اوائل القرن الميلادي الحالي قسطا كبيرا من الاوقاف ، وادرجها في ميزانية الدولة ، واصبح الائمة والمؤذنون يحتسبون اعمالهم لله بدون مقابل ، الا اكتتابات المصلين ، وتساهم الحكومة والبلديات في تعهد المساجد

اما في اندونيسيا فانها تمتاز بظاهرتين اثنتين : اولاهن الاوقاف العقارية نظرا لانعدام الملكية الفردية في معظم النواحي ، وشیوع ملكية الجماعة او القرية ، بحيث لا يملك الافراد حق التوقيف . ثانيا : لا توجد ادارة مركزية للاوقاف

وفي الباكستان تكثر الاوقاف خاصة في القسم الشرقي الذي هو البنغال ، حيث يشرف رجال الافتاء على الاوقاف باعانة لجنة يشارك فيها مندوب عن الحكومة اذا كان الوقف مهما . ورجال الدين مستقلون عن السلطات العمومية ولا توجد اية هيئة مركزية تنسق المسائل الدينية والواقع ان دولة الباكستان الفتية ما زالت في طور الاختمار والاصلاح فقد اصدر المجلس التشريعي في البنجاب ، اوائل 1952 قانونا ينص على صرف ريع الاوقاف ( لصالح التقدم والصحة وضمان اتفاق موارد الاحباس فيما وضعت لاجله )

وفي اليمن يرجع امر الوقف لبيت المال الذي يتحمل نفقات المؤسسات المدنية ، اما الاوقاف المعينة للاضرحة ، فان عليها نظارا خصوصيين يعينهم جلالة الامام ويسمون

(I) ذكر صاحب جذوة الاقتباس ان كثيرا من اوقاف المساجد ادخلها أهل فاس في منافعهم وحبسوها من اموالهم أيام ابن تاشفين فرفعت القضية الى القاضي عبد الحق بن معيشة القرناطي فتوجه الطلب على النظر والوكلاء في ذلك ومحاسبتهم فأبرزت المحاسبة 80000 ديناراً (ص42) وورد أن الاحباس احتفظت بادارتها المستقلة الى عهد مولاي عبد الرحمن الذي قرر ضمها الى دوائر المخزن والغنى النظار الخصوصيين للمساجد والاضرحة وعضهم في كل مدينة ناظرين يعينهما السلطان وقد حاز مولاي سفيظ عند ما بويج بمراكش خمسين الف فرنك من احباس هذه المدينة .



جامعة القرويين ( القبة الثانية قبالة المحراب قبل اصلاحها عام 1952 )  
وقد وقع الكشف عن نقوش وتلوينات مرابطة رائعة

« نظار التراب » وفي يوغوسلافيا كانت الاوقاف خاضعة منذ الاحتلال النمساوى الى عام 1884 الى ادارة تتركب من مسيرين عن الحكومة ، ولجان استشارية ، وكانت الموارد تنفق بالاخص على المعاهد الدينية . على ان انقلابات شتى طرأت فى العقود الاخيرة الى ان صدر فى 5 نوفمبر 1936 - دستور الجامعة الاسلامية - بيوغوسلافيا الذى ضمن للجالية المسلمة فى البلاد استقلالا دينيا يكاد يكون تاما داخل البلاد وخارجها ، فاصبحت هذه الجامعة منذ ذاك تتصرف فى الاوقاف لها ميزانيتها المستقلة وادارتها الخاصة .

والى الاحتلال الالماني عام 1941 كان هنالك مجلسان اقليميان يتركيان من ممثلين جهويين ، ينتخبون لاربع سنوات من طرف جميع المسلمين الذكور البالغين ، ويجتمع هذان المجلسان مرتين فى السنة للمصادقة على الميزانية ، وعلى القرارات الخاصة بالاوقاف ، وينتخب كل مجلس لجنته التنفيذية والادارية وفى كل اقليم وكل قرية تسير شؤون الوقف مجالس ينتخب اعضاؤها لاربع سنوات . ويرى الاوقاف هام فى يوغوسلافيا ، لان معظم المدارس الاسلامية تنعش منه . وفى عهد تيتو صارت لجان شعبية خاصة تتعهد المساجد . ولجنة العاصمة هى التى قامت بترميم مسجد بلغراد الذى تضرر من الغارات الالمانية

وفى المملكة العربية السعودية لا توجد ادارة للوقف الا فى الحجاز حيث تشرف ادارة عامة على شؤون الوقف ، وتصرف ريعه على المساجد ، وعلى الائمة والمؤذنين الذين تعينهم الادارة المذكورة باقتراح من قاضى القضاة . وهذه الادارة التى لها فروع فى جدة والمدينة والطائف يوجد مركزها بمكة وتتمتع باستقلال مالى ويمنحها الملك اعانة خاصة عند الاحتياج . وهنالك نظار للاوقاف المعينة كما فى المغرب . كما تتشابه فى البلدين مسطرة كراء الاملاك الحبسية حيث يوجب القانون المزد العلى ويحصر المدة فى ثلاث سنوات على الاكثر - يمكن تجديد هذه المدة فى المغرب لست ثم تسع - .

وفى تركيا الفت الجمهورية الوقف المعين وفرضت مراقبة دقيقة على الوقف العمومى الذى ارتبط مصيره بالشؤون الدينية وفى عام 1924 صدر قانون انشئت بموجبه وزارة للشؤون الثقافية تابعة لرئاسة الحكومة يشرف المسؤول فيها على المساجد والمعاهد الدينية كما الغى نفس القانون وزارة الاوقاف واحدت ادارة عامة مهمتها تنظيم الاوقاف بصورة تتلاءم مع المصلحة الحقيقية للامة .

وفي مصر (I) كانت نظارات الاوقاف مبعثرة الى ان وحدها محمد علي تحت اشراف ادارة عامة ولكن الاصلاح لم ينجح الى أن أعاد الكرة الحديوي عباس الاول الذي قصر اختصاصات الادارة المذكورة على مراقبة سير النظار واستعزال القاضي لكل من ثبت عليه اهمال او رشوة منهم . وقد أسس الحديوي اسماعيل وزارة الاوقاف وعوضها الحديوي توفيق بإدارة عامة تخضع للسلطان مباشرة وذلك مخافة تدخل انجليزى فى شؤون الوقف اذ ظل تابعا للحكومة ابان الاحتلال . وقد اعيد نظام وزارة الاوقاف عام 1946 كما أصبح المجلس الاعلى للاوقاف - متركبا من وزير الاوقاف كرئيس وشيخ جامع الازهر ووزير الاشغال العمومية ووزير الصحة ووزير المالية ورئيس لجنة النزاعات التابعة للدولة ونائب كاتب الدولة فى وزارة الاوقاف ومفتى مصر . وهذا المجلس هو الذى يتكفل بتحضير الميزانية وتقرير الاعتمادات والمصادقة على أعمال الترميم والبناء والتجديد والاقتناء والبيع والعقود التى تزيد قيمتها على 1500 جنيه وللوزارة مصلحةتان: فى مكة والمدينة لمراقبة احباس الحرمين وقد بلغت مداخيل الاحباس المصرية 180 I63 4 جنيه ومصاريفها 2420 I92 3 جنيه عام 1950 - فى حين ان مداخيل الميزانية العامة ومصاريفها تبلغ 800 000 I57 5 جنيه و 500 000 I87 - وتتعهد الوزارة بعض المستشفيات وملاجىء العجزة والايتام حيث كانت تتبنى فى القاهرة وحدها 600 يتيم كما تخول منحا لطلبة الازهر ومنذ عام 1943 اصبحت تقرض ذوى الحاجات بدون فائدة .

وفي سوريا تشرف على الوقف ثلاث هيئات ، هى الادارة العامة للاوقاف ومجالس منتخبة خاصة فى المحافظات والنواحى والمجلس الاسلامى الاعلى الذى يوجد مركزه فى العاصمة . أما مجالس المحافظات فانها تتركب من ستة أعضاء فيهم عالم وقاجر وملاك ومتمول ومهندس وخبير فنى ومحام وكلهم منتخبون وقد بلغت ميزانية عام 1949 ، 2100000 جنيه سورى - وقد منحت الدولة للاوقاف فى نفس السنة 544000 جنيه ، وفى لبنان يوجد وضع خاص نظرا لتشعب الملل والنحل هناك . ولكن حكومه لبنان اقتبست عام 1947 من النظام المصرى

(I) كانت ثلاثة ارباع الاراضى الزراعية فى تركيا العثمانية كلها فى ملك الاوقاف وتدل الاحصائيات المصرية لعام 1935 على أن سبع الفدادين المزروعة فى ملك الاحباس وبلغت المحبسات الجديدة ما بين سنتى 1930 و 1935 نحو الخمسمائة و 8000 هكتار من الارض وكان عدد المتمعين بارياع الاوقاف 70,000 نسمة وقد بلغت ميزانية الاوقاف عام 1934 و 1935 ( وهى فترة الازمة الاقتصادية ) I.570,000 جنيه ووصلت مداخيل وقف الاسرة المالكة الى مليون جنيه وقد ألغى الوقف المعين أو الخاص فى سوريا عام 1949 وفى مصر عام 1952 فى حين ضوعفت مراقبة الاوقاف العمومية نظرا لرسالتها الاجتماعية .

وفي الاردن تأسست عام 1946 ادارة مركزية للاوقاف مستقلة عن الهيئة المركزية للشؤون الدينية ، وهي تابعة لرياسة الوزارة ، وتتركب من مجلس اعلى ومدير عام ومراقب عام للحسابات وأمين وموظفين ولجن محلية

وفي العراق كذلك تشرف على الاوقاف هيئة يرأسها مدير عام ويعينه مفتش عام مكلف بالشؤون المادية والادارية ، الا ان لجان هذه الادارة العامة المنظمة للاوقاف ، تتركب من مديرين محليين في I4 ولاية ومأمورين للاوقاف . وللاوقاف ميزانية خاصة يصادق عليها البرلمان مثل الميزانية العامة

وقد بلغت ميزانية الاوقاف 472000 دينار عام 1951 بينما بلغت الميزانية العامة 25 مليون دينار

وفي ايران توجد بوزارة المعارف ، ادارة عامة للاوقاف ، وفي الاقاليم والولايات مديرون وتندرج ميزانية الاوقاف في ميزانية المعارف العمومية ، ويراقبها المفتشون العامون التابعون لهذه الوزارة

اما في المغرب العربي ، فان الانظمة تنسم كذلك بطوائج خاصة ، ففي طرابلس توجد ادارتان جهويتان للاوقاف ، وفي كل الاقليمين مجلس يتركب من رئيس وثلاثة مستشارين ، ومدير، تعيينهم السلطات الحكومية بعد استشارة القاضي وتتصرف هذه المجالس في شؤون الاحباس تحت مراقبة المحاكم الشرعية ، ولكل مجلس ميزانية مستقلة ، تصادق عليها الحكومة وتراقب تنفيذها مصالح المالية الحكومية

وفي الجزائر ( الشمالية على الاخص ) ادمجت الاملاك الحبسية ضمن املاك الدولة بعد الاحتلال واصبحت الدولة الفرنسية تعتبر نفسها المحط النهائي الذي ترجع اليه الاوقاف المعينة بعد اندراس المعقب عليهم . ورغم ما تقرر عام 1947 من فصل الشؤون الدينية عن شؤون الدولة ، فانه لم يحدث اي جديد في الموضوع وتولى الحكومة بعد الاستقلال عناية خاصة بالاوقاف حيث شكلت وزارة للاهتمام بشؤونها

وفي تونس ادمجت الاوقاف في ميزانية الدولة بعد اعلان الاستقلال وكانت ادارة الاحباس تتركب من مجلس اداري وادارة مركزية ، وادارة محلية ومتصرفين فسي الاوقاف . والكل يخضع لمراقبة المجلس الاعلى للاحباس

وكان يشرف على الادارة الحبسية منذ 1944 رئيس المجلس الاداري ، الذي يعينه نائبان ، احدهما يسير المصالح الادارية والآخر المصالح المالية وينقسم الجميع الى عدة مكاتب مثل المكتب العقاري ، ومكتب النزاعات ومكتب التسيير ومكتب الزياتين ومكتب الاحباس المعينة ، ومكاتب الحسابات والميزانية ، والاحصاء والتوزيع والاصلاحات والתרميمات

وكانت الادارة المحلية تحتوى على I4 مفتشا او نائبا يمسكون سجلات الاملاك  
الحبسية  
ومن هذه العجالة ، تتضح الاهمية القصوى ، التي تتسم بها الاوقاف في مختلف  
مناحي العالم الاسلامى



صفالة الصويرة بمدافعها وبرج المنار ( الفنار ) الذى تستضىء  
به السفن فى طريقها الى مدخل المرفأ

## الفصل الثالث :

# الاسلام في المجتمع البربري

كتب الاجانب عن البربر وتقاليدهم كثيرا من المصنفات وتقدموا بشتى الاطروحات في هذا الموضوع الذي اكتشفوا فيه مادة وافرة لتطعيم سياسة التفرقة بين العرب والبربر ولكن بالرغم عن الحاجز الكثيف الذي أقيم بين الجبل والسهل وعن المناطق الحرام المصطنعة وعن الدسائس التي حيكت لفصل البربر عن الشريعة بدعوى أن لهم عرفا يتمسكون به ولا يريدون به بديلا بالرغم عن هذا وذاك تمخص الكفاح - كفاح الجبل والسهل - عن رجوع الوحدة الى مجراها وعن استقلال بنى أسسه ويدعم اليوم مستقبله العرب والبربر معا

ان الاسلام كان دائما الدعامة الكبرى والعروة الوثقى التي تربط بين أجزاء المغرب وتوحد في جنباته المتباعدة لا المظاهر السطحية فقط لان المظاهر لا تعين كثيرا - ولكن الروح والذهنية اللتين هما المرآة الحق لنفسية الشعب ومثله العليا .

جلس الملوك المرابطون والموحدون والمرينيون على عرش المغرب وهم برايزة فكان اول عمل قام به المثلثون هو - كما يقول ابن ابي زرع « رد احكام البلاد الى القضاة واسقاط مادون الاحكام الشرعية » ( ج 2 ص 37 ) بل « عدم القطع في أى أمر دون مشاورة الفقهاء » الذين هم ممثلو الشريعة ( المعجب ص 102 ) وبأدروا في نفس الوقت الى الانضمام لدار الخلافة العباسية اعلاء لكلمة الاسلام وتوحيداً لربوعه المتناثية وكاد يجمع المؤرخون - حتى المتصعبون منهم للنصرة البربرية - على أن الفكرة الاسلامية كانت هي العامل القوي في بناء « الامبراطورية » المغربية التي امتدت من السودان الى برقة وقشتالة بالاندلس ولم يتمالك بعض هؤلاء المؤرخين عن اظهار حنقهم ضد البربر لكونهم « لم يشعروا بتقاليدهم الخاصة ولكون ملوك أمازيغ لم يستطيعوا التعرف الى المشاكل التي يثيرها العالم البربري ولم يحاولوا تحقيق وحدة جنسهم المعنوية » نعم « قضى هؤلاء الملوك المرابطون والموحدون - باعتراف المؤرخ طيراس - على بقايا رواسب الوثنية في الاطلس والريف والسهول البربرية وقطعوا اشواطاً كبرى في بث الروح الاسلامية في النفوس والتمسك بالشريعة »

وقد أكد الاستاذ « اوبان » في كتابه « مغرب اليوم » أن الاسلام حمل معه عاملاً

ثمينا للوحدة في كل بلد اعتنقت الدين الجديد وهذا العامل هو العربية التي هي لغة الدين ولغة الحضارة « وقال في موضع آخر : « لا يوجد سوى رابطتين يمكنهما جمع أشتات هذه الذرات المتناثرة ، وتكوين دولة : وهما رابطة الدين المتولدة عن العقيدة الإسلامية والرابطة السياسية التي يتمخض عنها تطور المغرب التاريخي ذلك التطور الذي يحيل الجامعات المشتتة الى سلطة مركزية ..

وقد تغلغت « أداة الفكر العربي ولغة القرآن في أعرق قرى الاطلس حيث يتلو الصبيان القرآن ويتبعه الناس في صلواتهم عن طريق العربية وقد أكد روبر مونتاني الذي قام بتحقيق في هذه النواحي أن البربر « نقلوا الى لهجاتهم من اللغة العربية كل ما يتصل بالدين والسياسة والآداب والمجاملات وايضافات ( ثورة في المغرب ص 372 )

على أن كثيرا من القبائل أتت تلهج بالبربرية هي من أصل عربي وبكفى أن نعلم أن في الاطلس وسوس والريف قبائل تنتسب الى قريش وهي مع ذلك مزجاة البضاعة في لغتها الاصلية فالمسألة اذن مسألة ملابسات محلية .

أما انتشار الشريعة في الربوع البربرية فقد تحقق نوعا ما في عهد الادارسة ثم في عهد المرابطين الموحدون والمرينيين وبدأ يفتقر بعد ذلك رغم انبثاق السعديين وحتى العلويين باسم الاسلام والقرشية من صحراء المغرب الشرقية او الجنوبية وقد حدثنا الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي عن بعض القبائل البربرية التي زارها في القرن العاشر فلمس رغبة الناس في طبع مظاهر حياتهم بالمطابع الاسلامي واستعداد البربر لا يواء حملة الشريعة الاسلامية الذين تنقلهم المصدف الى قراهم وتمنيتهم بالمال وقد حكموا ليون الافريقي نفسه في نزاعاتهم وفي الاطلس الكبير حكى ابن الوزان ان القبائل تصرف أموالا طائلة على قضاة دائمين كما هو الحال في مريسة وفي بني زروال وشيشاوة ، وتينمل وكذلك اريف ولكن كثيرا من القبائل اضطرت - في مختلف مراحل التاريخ - ازاء انعدام القضاة الشرعيين الاكفاء - الى تحكيم جماعة الاعيان الذين - نظرا لجهلهم بالشريعة - يصدرون احكامهم حسب رأيهم وقد تكونت خلال الاجيال من احتكاك هذه الآراء ومقارنة نتائجها أعراف أحيانا عن الاسلام كما وقع في الارث حيث نخيت المرأة بسبب ما يخشاه البرابرة من تسرب الزوج الاجنبي وتدخله في الملك العائلي والا « فان تجريد المرأة من الميراث لا يستمد - كما يقول سوردون في المؤسسات البربرية ص 213 - من روح معارضة الاسلام »

ويلاحظ « سوردون » هذا في دراسته للاعراف البربرية انه « لا يوجد تعارض ما بين الشريعة والعرف » على أن الاسلام نفسه يحكم الاعراف المحلية الصالحة « فالعادة عند البربر - كما يقول سوردون - تسمى اما شرعا واما عرفا فالشرع هو العرف العام أما العرف الحقيقي فهو تلك المجموعة من الاجراءات الجنائية والاتفاقات المبرمة بين مختلف الجماعات لتحديد بعض نطق العرف أو تعديلها لا سيما في خصوص

المخازن العامة « أجدير » أو « السواقي » ( ص 281 ) وهكذا يظهر ان العرف العام هو الشرع وهو الذي يطبق في كافة القبائل التي تتأتى لها وسائل تطبيقه ولكل قبيلة عرفها الخاص ( ص 240 ) وفي وادي درعة مثلا حيث استمر العمل بالعرف « يسمى القانون الخاص غالبا به وكان يطبقه قبل ايام حكام يدعون قضاة أو مفتين يختارون من بين الطلبة الاكفاء الذين درسوا الشرع الاسلامي وحذقوا جزئياته وهنا أيضا « لم يقع أى تصادم بين الشريعة والعرف » ( سوردون ص 342 ) وهذا المبدأ عام في مجموع المغرب العربي ففي الاوراس - بالجزائر - مثلا ، نراهم يستعملون الشريعة الاسلامية وقد احتفظوا مع ذلك بأعرافهم الخاصة التي تستمد وجودها من الملابس الجغرافية الشبيهة بما في اسوس او الاطلس الاوسط بحيث نرى بلاد الشاوية الجزائرية تلتجىء في فض نزاعاتها العامة الى القاضي المالكى وفي الخلافات الخاصة الى اعيان الجماعة ( ص 395 ) وهكذا نرى المغرب العربي منقسما شطرين كلاهما يستمد من روح الشريعة الاسلامية فالمنهج المالكى الذي يتمذهب به نحو 70 مليوناً في العالم الاسلامي يطبق في حواضر المغرب العربي وكذلك في القبائل التي يتأتى لها الاتصال بهذه الحواضر أى في نصف افريقيا الشمالية تقريبا بينما يتركز العرف المزوج بالفقه المالكى في الشواحي ..

وهذه الملابس الخاصة هي التي حدث ملوكنا الى احترام الاعراف المحلية لانها في الحقيقة تساير روح الاسلام وقد لوحظ أن كثيرا من الاعراف المحلية صادق عليها الملوك باقتراح من الاشراف المحليين واهل الدين كالظهير الحسنى الصادر في شأن الاعراف الجنائية بزمو الشلح وكما وقع أيضا في اداوتنان عام 1106 هـ في زاوية سيدى ابراهيم وعلى وكثيرا ما ترجع القبائل تلقائيا الى تطبيق الشرع الاسلامي متى تيسرت لها الاسباب فقد نشرت مجلة هسبريس ( ج 18 سنة 1934 ص 46 ) وثيقتين ذكرت أنهما أقدم ما يوجد في القانون الجنائي العرفي بالمغرب ويرجع تاريخهما لعام 1512 م وقد ورد في مقدمتهما أنه « بعد التعرف الى الضلال الذي تنطوى عليه الاعراف العتيقة أصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد في القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم في خصوص الجرائم تبعا لآية القصاص » وقد نشر لائحة من الديات فالذي كان ينقص النواحي البربرية اذن لتطبيق الشرع الاسلامي هو الوسائل وقد توفرت اليوم بحمد الله بعد اعلان الاستقلال والغاء الظهير البربرى حيث تمكنت وزارة العدل التي تشرف على الاجهزة القضائية بكافة انحاء المغرب - أن توحد النظام القضائي على أسس تستمد من الشريعة الاسلامية الصالحة لكل الاعصار والامصار كما تستمد كل ما يتلامم وروح الاسلام مما تنطوى عليه الاعراف المحكمة والقوانين



مخزني من حشم القصر الملكي

العالية (I) وهي مهمة شاقة جدا ومسؤولية خطيرة ولنا في الاقطار الاسلامية الاسوة  
الحسنة حيث نجد في القضاء الصرى مثلا ، ذلك النوع من التناسق المطبوع بطابع  
الاسلام ومن المرونة التي تتسع لكل جديد صالح

f

---

(I) نقل ابو الوليد محمد ابن عبد الله بن خيرة في تعليقاته على النهاية شرح  
الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا  
كثيرا بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها  
خصوصا في المائتين الرابعة والخامسة من الهجرة ومن هؤلاء هربرت والبرت اللذان  
طلبوا مساعدة العلماء لابرار مقصدهما فساعدوهما على تدوين الفقه كاملا وحوروه الى ما يوافق  
بلادهم ولذلك نرى احكام القوانين والقضاء لا تزال رديئة وسيئة في العدو الشمالية  
وهربرت هذا هو البابا سلفستر الثاني الذي يقال انه درس في القرويين .

## الفصل الرابع :

### الحالة المدنية

العرب من اشد ان لم نقل اشد الشعوب اعتناء بالانساب وقد انتظمت عندهم هذه الانساب حتى اصبحت المعرفة بها تكون علما له قواعده ونواميسه والمختصون فيه وفي هذا العلم كانت تتجلى مقدرة العرب على الاستدكار والوعى حيث تجد الرجل يعرف عن كل عائلة من قبيلته وحتى عن بعض القبائل الاخرى حلقاتها السلالية بما يتصل بها من اسماء وتواريخ ومميزات .

والحالة المدنية تشمل ثلاث مراحل في حياة الفرد فهناك سجل للمواليد وآخر للانكحة وثالث للوفيات فلننظر الى اى حد كان هذا الثالوث محفوظا عند العرب وبأية وسيلة حفظ ؟ فهناك قضية لا نشك فيها وهي ان العرب وان لم تكن لهم فى الاغلب اماليب عمومية منتظمة لتسجيل الحالة المدنية فقد كانوا يضبطون هذا التسجيل فى اطار عائلي مما ساعد رجال التراجم والتاريخ على اثبات كل ما يتصل بعلماء الاسلام وشعرائه وفقهائه وفلاسفته وباقي العظماء من احداث بتواريخها الدقيقة .

ولكن ينسب الى معاوية بن ابي سفيان الذى امتدت فى عهده حدود المملكة الاسلامية وغزا بلاد الروم بألف وسبعمائة سفينة - نوع هام من تسجيل الحالة المدنية لا سيما فى مصر حيث جعل على كل قبيلة موظفا خاصا يدور كل يوم على مجالس القوم فيسألهم هل ولد لهم مولود وهل نزل بهم طارق فيسجل لفلان غلام ولفلان جارية مع اسميهما وكان هناك ديوان خاص يرجع اليه اولئك الموظفون الجهويون لتسجيل اسماء المواليد وبهذا كانت الدولة تحصى عدد السكان ولا يفوتها خير من ينتقل فى ارجاء البلاد وكان الى جانب ذلك سجلات للجند بالخصوص .

وهذه الروح المركزية كانت قوية منذ صدر الاسلام فقد ورد فى كتاب التاج المنسوب للجاحظ ان عمر كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد فلم يكن له فى قطر من الاقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا امير جيش الا وعليه له عين لا يفارقه وما وجدته فكانت الفاظ من المشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح .

وكانت هنالك وسائل رسمية وعائلية لحفظ اركان الحالة المدنية لا سيما قسم

الانكحة والوفيات المتصل بالارث فكانت سجلات المحاكم الشرعية لا تزال مرجعا موثوقا به في هذا الباب ولكم من سلالات امكن ربط حلقاتها بعد قرون عديدة بمجرد الرجوع الى رسوم عائلية كثيرا ما تنضبط فيها تواريخ الموالد والوفيات وغيرها وكان في العائلات علاوة على رسوم متوارثة ما يسمى بشجرة النسب وكانت العائلات قبل اليوم تعنى عناية كبرى بهذه الاشجار فتضبط ما يتفرغ عن اصوالها على تعاقب الاجيال وما يتصل بهذه الفروع من تواريخ وتكن هذه العناية فترت في القرن الاخير حتى انصرم حبل كثير من السلالات بظهور حلقات مفقودة وتواريخ غير مضبوطة بينما كان يندر في اقرون الماضية ان تفلت لاسرة من الاسر حلقة من الحلقات فى سلسلتها السلاية وقد استولت علينا فى العصور الاخيرة روح لم يكن آباؤنا يانسونها وهى اعتمادنا على الذاكرة واهماننا التسجيل ( وقد يكون لظهور الطباعة اثر فى فتور همة التخطيط عندنا ) بحيث كثيرا ما اصبحت اهم الاحداث فى تاريخنا المعاصر تضيع بالنسبة للدولة وحياتها وبالنسبة للافراد وكانت لنا الى نهاية القرن الماضى كنانيس تسجل فيها حالة الجنود المدنية غير انها لم تكن عامة ولا منتظمة ومع ذلك فقد ظلت روح الاحصاء بشكلياتها المملة متغلغلة فى الفكر العربى حيث نجد المؤرخين يدلون بارقام مضبوطة يستندون فيها الى سجلات الدولة او بعض الاحصائيات الفردية فقد احصى فى فاس ايام المنصور والناصر الموحدين وكذلك فى قرطبة ايام الناصر الاموى عدد الدور والمساجد والحمامات والفنادق والارحاء والمصانع وحتى عدد المصابيح فى بعض المساجد وعدد الكتب والمخطوطات فى الخزائن المهمة والشواهد على ذلك مختلفة واحصى عدد سكان المغرب فى القرن العاشر فى الحواضر والبوادى مع عدد المدن الذى وصل اذ ذاك الى مائتين وخمسين ويروى ان المولى اسماعيل عمد الى احصاء عدد السكان فى بعض النواحي وهو الذى كان يضبط سجل عناصر جيشه بما يتصل بمراحل حياتها ضمن الجيش ولكن هذه الروح فترت حتى كادت تتلاشى بالمرة .

وبالجملة فان حفظ الحالة المدنية كان يجرى فى الامم العربية غالبا على هامش الاطار الادارى الذى لم تكن فيه سوى سجلات خاصة بطبقات من الشعب دون غيرها ومع ذلك فالانساب عند العرب وكذلك مراحل حياة الافراد كثيرا ما كانت تنضبط بدقة .

## الفصل الخامس :

### سكان المغرب

يتعذر على الباحث ان يرسم صورة كاملة عن عدد سكان المغرب فى مختلف مراحل تاريخه ولكن هناك وثائق كثيرة تعطينا نظرة تقريبية عن عدد هؤلاء السكان فى بعض العصور فلنستعرض ما سجلته تلك المستندات ولنقس المجهول بالمعلوم محاولين سد بعض الفراغ فى هذه المسألة الشائكة :

ذكر عدة مؤرخين عرب ان سكان الرباط فى القرن الثالث أى قبل تأسيسها بثلاثة قرون كان ينيف على المائة الف وكانوا كلهم مرابطين لاقرار لهم تاتى افواج وترتحل اخرى فى تجدد مطرد وكانت الرباطات فى ذلك العهد اهله بالمجاهدين ومنتشرة على طول الساحل . وقد بلغ عدد سكان مراكش عاصمة المرابطين أيام على بن تاشفين نحو المائة الف نسمة وانحط هذا الرقم الى ثلاثة عشر الفا أيام الحسن بن محمد الوزان ( اوائل القرن العاشر ) الذى اثبت الرقمين معا فى رحلته .

وإذا عرفنا عدد سكان مدينة واحدة امكنا أن نقيس فنستخرج رقما تقريبا لسكان مجموع المدن التى كان عددها ينيف على المائتين هذا علاوة على عدد سكان البادية والجبل ، اما فى العهد الموحدى فان رقعة المغرب قد اتسعت فتضخم بذلك عدد الرعايا المغاربة بالنسبة للعصر السالف وقد أمكن لعبد المومن بن على ان يجمع فى بسيف سلا وحده ثلاثمائة الف من المجاهدين وفى أيام المرينيين زار المغرب رحالة انجليزى وطاف على مختلف انحائه فقدر عدد سكان عاصمة فاس وحدها بمليون نسمة وليس هذا الرقم ببعد اذا علمنا ان مدينة فاس كانت اذ ذاك عاصمة المملكة ومهبط رواد العلم والمال والجاه وقد ورد ان عدد سكان عاصمة قرطبة بلغ نصف مليون أيام الناصر بل ان سكان بغداد تجاوزوا مليونين اثنين أيام الرشيد وقد اصبحنا نسمع فى السنين الاخيرة ان عدد سكان بعض كبريات العواصم يبلغ العشرة ملايين او يزيد وقد اورد الحسن بن محمد الوزان فى رحلته مجموعة من الارقام جاء فيها ان المجاهدين العرب وحدهم بلغ عددهم فى عصره 694 الفا من المشاة و 65.300 من الفرسان وان جنود البربر بلغ عددهم فى اثنتين وثلاثين قبيلة 463.600 وكانت هنالك ثلاث واربعون قبيلة اخرى ينوبها من الجنود نحو 622 الفا فيكون المجموع مليوناً وخمسة

وثمانين الفا وستمائة جندى .

وإذا طبقنا نظرية المؤرخ كاريط القائلة بأنه إذا ما زيد على عدد الجنود ربعه ( الذى يمثل الزمنى والمرضى ) كان ذلك ثلث مجموع السكان امكنا أن نقدر عدد سكان القبائل العربية فى المغرب ( اوائل القرن العاشر ) بـ 2.850.000 والقبائل البربرية بـ 4.071.000 فيبلغ مجموع عدد سكان البدو ما يناهز سبعة ملايين نسمة . وورد فى رسالة كتبها فرنسى من المغرب لاحد مواطنيه أيام المولى اسماعيل ان المغرب كان فيه اذ ذاك 250 مدينة اصغرها لا ينقص عدد سكانه عن ثلاثين الفا وكان بفاس وحدها ( ستة عشر مائة الف نسمة ) على حد تعبير الراهب أى مليون وستمائة الف من السكان وهذا الرقم يعضده ما نقلناه عن الرحالة الانجليزى اعلاه .

وإذا كانت فاس تسع هذا العدد من أناس فان كبريات العواصم الاخرى - لا سيما منها عاصمة المولى اسماعيل ملك ذلك العهد - تؤوى على الاقل مائة الف نسمة على اننا اذا قدرنا معدل سكان المدن المغربية بخمسين الفا للوحدة فان مجموع سكان المدن يبلغ اثنى عشر مليونا ونصف مليون زيادة على المليون والستمائة الف التى بفاس فيكون الجميع نحو الاربعة عشر مليونا فى المراكز الحضرية وحدها فاذا اضعفنا الى ذلك السبعة ملايين من البدو ( الذين اثبت وجودهم بالمغرب الحسن بن محمد الوزان قبل هذا العهد بنحو القرن ) صار الجميع واحدا وعشرين مليونا ولاشك أن فى هذا الرقم شيئا من التسطط ولكن ليس هنالك ما يدحضه على اننا اذا فرضنا ان معدل سكان المدن بلغ 30.000 نسمة فقط بدل 50.000 امكنا ان نصل بمجموع عدد السكان الى ما ينيف على ستة عشر مليون نسمة وهو رقم مقارب لما لوحظ اوآخر القرن المنصرم .

وقد ذكر المؤرخ الفرنسى دوفونطان ماكسناج فى الكتاب الذى صنفه حول المولى اسماعيل ان الوباء الذى اجتاح اوربا فى القرن السابع عشر ( أى الحادى عشر الهجرى ) اخلى مدينة روان الفرنسية ثلاث مرات ( 1619 - 1623 - 1667 ) واستاصل شافة سكان سارلات عام 1634 ورينس عام 1640 وتوالت على باريز خمسة اوبئة فى ظرف خمسين عاما اهلك احدها ازيد من اربعين الف نسمة فى العاصمة الفرنسية وقد انتشرت عدوى هذا الوباء الوبيل فى المغرب عاتيا من اوربا فبدأت بتطاون حيث بلغ عدد ضحاياها - على ما يقال ولعل فى ذلك مبالغة - 25 الفا خلال عامين وفى القصر واصيلا 32 الفا وفى مكناس 52 الفا اثناء ثلاثة اعوام وفى فاس خلال نفس المدة 85 الفا وفى سلا فى ظرف عامين اثنى عشر 18.000 وازمور ثمانية آلاف وتافيلالت ونواحيها سبعين الفا ولم يهدأ تيار الوباء الا عام 1681 بعد ان قضى فى المغرب وحده على نحو الاربعة ملايين ومع ذلك فقد ظل المغرب مائجا بالسكان بالرغم عن هذا الطاعون الذى هبت سمومه من اوربا حيث عجز الطب عن ايقاف تياره وقد انتشر بالمغرب فى ذلك العهد



(4)

الضارب على الكنبري

من الأمراض التي كانت معروفة بأوروبا كالمرض المسمى بمرض الدنيا والمرض الكبير ومرض النسا وسمى ليون الافريقي هذا المرض بالمرض الاسباني او الفرنسي .

وكان معدل اعمار سكان المغرب يتراوح بين 65 و 70 سنة بل كان يزيد في الجبال الاطلسية ( حيث الهواء الطلق ) على المائة عام وقد أيد المؤرخ كيون هذا العدل مستندا الى وثائق يرجع عهدهما للعصر الروماني ولا يخفى ان المرابطين والموحدين والمرينيين اهتموا كثيرا بحالة المغرب الصحية فاكثروا من المارستانات وجهزوها بكامل المعدات ووسائل الراحة وكانت في ارباض عاصمتي فاس ومراكش مراكز لايواء المجذومين كما كان في عاصمة الموحدين مارستان لا يقل في سعة مرافقة وجودة اجهزته واقتدار اطبائه عن كثير من مستشفيات العصر الحديث وقد قام المولى اسماعيل خلال الوباء المذكور بدور خطير في تخفيف لوعة البؤس وتحديد خطر الطاعون الداهم.

على ان من أهم العوامل التي كانت تحفظ التوازن الصحي في البلاد قلة ان لم نقل انعدام الحمور والأمراض التناسلية مع تمكن صفة القناعة من معظم السكان لا سيما في البادية والقناعة اخت الحمية والحمية رأس الدواء ولكن الدسائس التي بدأ الاجانب يحكيونها بقوة واستمرار خلال القرنين الاخيرين قد اثرت في عوائد البلاد فشاع الترف وانتشرت المواخير في طي الحفاء وكثر البغاء وعمت امراض داخلية لم تكن معروفة من قبل فتضخم عدد الوفيات وتناقص بسبب ذلك عدد السكان حتى بلغ خمسة عشر مليونا في القرن الماضي - فيما يروى - وهو يبلغ عشرة ملايين الآن .

f

القسم الثاني:

المظهر الحضاري والاقتصادي

## الفصل السادس :

# الاقصاد في الف عام

يظهر أن المغرب عرف - خلال عهود السيطرة الاجنبية - فترات من الفوضى يستعصى وصفها فلم يحاول الفنيقيون ولا القرطاجنيون ولا الرومان - كما يقول ميشوبيلير في محاضراته - ابتداء شيء من النظام لجعل حد لهذه الفوضى فقد استنزفوا خير البلاد جهد المستطاع صارفين نظرهم الى خيراتها اكثر من اعتنائهم بأهلها ويلوح أن سكان النواحي التي خضعت مباشرة للسيطرة الرومانية والبيزنطية كانوا في حالة اقرب الى الاسترقاق يرضخون لاقصى انواع التسخير ولاشد التكاليف ارهاقا ، واذا كانت افريقيا الشمالية قد استطاعت في كثير من الاحايين أن تستفيد من بعض مبتدعات القرطاجنيين في الميدان الفلاحي وأن تضمن بشق الانفس استهلاكها الداخلي ، فان افريقيا الرومانية كانت كلها في ملك خمسة من كبار الشخصيات الرومانية - حسب بلين - وكان اكبر ملاك عقارى هو الامبراطور نفسه ، « وأمسيت البلاد عبارة عن حقل شاسع يستغل استغلالا كليا » ( أندري جوليان ) لهذا رأينا أنه عند ما حمل عقبة بن نافع الاسلام الى المغرب للمرة الاولى عام 6١ هـ ( 680 م ) تقبل أضعف الناس هذا الدين الجديد بمثابة خلاص من الجبايات المرهقة ، ذلك ما لاحظته ميشوبيلير الذي قارن بين مفعول الاسلام ومفعول المسيحية في الربوع الافريقية فأكد أن المسيحية لم تحمل الى افريقيا على ما يظهر سوى الحروب الدينية والاضهادات والنزعات الطائفية ولعل ذلك هو ما سماه الاستاذ طيراس « بالنظام اللاتيني والمسيحي »

وهكذا استقبل المغاربة الفاتح العربي كمحرر لا سيما وأن العرب حملوا معهم كما يقول كوتيبى « حكومة نظامية مجهزة بجميع الهيآت العسكرية والادارية » ولكن الكاهنة اليهودية نشرت الدمار والحراب في بلاد كان الناس يمشون في ظلال أشجارها فأنارت ضدها المزارعين والحضرين معا

وفي عام 85 هـ تم اسلام مجموع المغرب واستطاع القادة العرب تفهم البيئة البربرية لا بين العالمين العربي والبربرى من تشابه في الجهاز الاجتماعى والقوام الاقتصادى وعاش الجانبان فترة يسيرة في وئام كدر صفوه عامل طنجة عمر بن عبد الله المرادى الذى أراد تخميس البربر خارقا بذلك مبدأ المساواة حيث اعتبر البربر فيثا

للمسلمين ، فنار البربر عام 122 بقيادة ميسرة المدغرى تحت شعار مذهب الخوارج  
الداعى الى المساواة بين المسلمين ( البيان المغرب ج I ص 52 )

ولكن ما لبث المغرب أن تحرر من القيود الجبائية لا سيما فى عهد الادارسة فتتنفس  
الصعداء وانطلق الاقتصاد المغربى من العقال الذى كان يخنقه فازدهر وانتظم وأصبح  
« منطقيا قارا » كما وصفه المؤرخ طيراس

وكان هذا الاقتصاد فلاحيا فى جوهره : سوائم وزروع وفاكهة . واذا استثنينا  
الصحراء القاحلة نجد أن الجنان والغابات كانت تغطي مقاطعات مترامية الاطراف  
حتى فى الاطلس الذى وصف ابن خلدون ثرواته الضخمة والذى قال عنه الاستاذ  
سيليرى بأن جانب النقص فيه هو قلة الارض لا قلة الماء

وكان الطابع الحضرى يعوز المغرب قبل الفتح الاسلامى واذا كانت هنالك مدن  
قديمة وجدها العرب فى المغرب فانها لم تكن حواضر متماسكة كالتى سيعرفها المغرب  
منذ عهد الادارسة وانما كانت عبارة عن مجموعة مداشر أو « قصور »

فمدينة فاس التى بناها المولى ادريس ( ادريس الاول حسب أبى بكر الرازى  
وابن سعيد وادريس الثانى حسب بقية المؤرخين ) واتى كانت - فى نظر كوتى -  
« اية فى الاقتباس من الحضارة الشرقية أسست فى ناحية كانت تعتبر منذ ذاك من أغنى  
نواحي المغرب وما لبث محيطها الخاص وموقعها فى مفترق الطرق الكبرى قرب مر  
تازة - الذى هو أعظم مر بين افريقية والمغرب - ان جعلها المركز الثقافى  
والاقتصادى للمغرب وكانت هذه هى أولى الخطوات نحو التركيز والتخفيف من عوامل  
التشتت القبلى .

فقد وجد البربر فى بساطة الاسلام السمع مقومات الوحدة وجواذب نحو الحياة  
الحضرية التى طعمتها عناصر جديدة هاجرت الى المغرب كالاندلسيين الذين انتقلت  
منهم الى فاس 800 (I) عائلة حوالى المائة الثانية الهجرية على اثر وقعة الرض ثم 300  
أسرة من القيروان التى بناها عقبه بن نافع واتى كانت اذ ذاك ابهى الحواضر الاسلامية  
فى افريقيا الشمالية

وكان من بين هؤلاء ادباء وتجار ومزارعون مهرة ما لبثوا أن نشروا أفكارا  
اقتصادية جديدة تمخضت عنها تدريجيا حركة تطويرية طبعت مختلف مظاهر الحياة  
المغربية بطابع طريف لم يكن للقبائل عهد به فى مجتمعاتهم واقتصادياتهم ، نعم ظهرت  
نواة مجتمع بورجوازى فى عدوة القيروانيين الذين فتحوا قيسارية ودكاكين تجارية

(I) كما ذكره طيراس فى تاريخه وذكر دوزى فى تاريخ المسلمين باسبانيا ان  
هذا العدد بلغ ثمانية آلاف عائلة (ص301) .

وضربت اول دراهم مغربية عام 185 هـ

وما زال متحف كاركوف بروسيا يحتفظ بدرهم منها كما يوجد في المكتبة الوطنية  
بباريس درهم ادريسي آخر يرجع عهده الى عام 189 هـ

وقد عثر في ويلي عام 1952 على 231 درهما فضيا ودينار ذهبي وكلها نقود أموية  
شرقية كما عثر على دراهم أموية يرجع عهدها الى ما بين 79 و 125 وقد لعب الدرهم  
اذ ذاك دورا مهما في تجارة اوربا نحو من أربعة قرون حيث ظل العملة الوحيدة

وفي هذه الحاضرة الجديدة تجمع الف من التجار فيهم المسلم والمسيحي واليهودي  
تنافسوا في جلب البدو لاقتناء بضائعهم المتنوعة وكانت هناك حواضر أخرى مثل اصيلا  
والبصرة التي هدمها ابو الفتوح صاحب افريقية من قبل العزيز بالله عام 368 هـ وكانت  
تعرف ببصرة الكتان « لانهم كانوا يتبايعون في بدء أمرها أكثر تجاراتهم بالكتان »  
( المغرب ج 2 ص 133 و 330 )

وقد تمخض هذا الاشعاع الحضارى عن نزوع الى الاستقرار لدى بعض القبائل  
الرحالة وبذلك اتسم الاقتصاد نفسه بشيء من الاستقرار وظلت الصحراء مسرحا  
للرعاة الرحالين الذين يتعيشون من تربية السوائم ومن تجارة القوافل بين الواحات  
وأطراف الصحارى .

وبعد انحلال المملكة الادريسية استمر الامراء الادارسة من الشمال الى الجنوب  
في اقامة أو توسيع حواضر صغرى على نسق فاس نشرت حولها تدريجيا أسباب الحضارة  
الاسلامية مثل اصيلا وقصر كتامة أو قصر عبد الكريم ومدينة جنيازة ( قرب فاس )  
وتيكيساس وتيطاون التي ما لبثت الادارسة أن هدموها .

وقد أكد الاستاذ طيراس ان أعمال الرى التي هي ضرورية لكل ازدهار فلاحي  
ولكل تطور حضري كانت من أهم أعمال الاسر المالكة المسلمة ويظهر أن العهد الادريسي  
لم يلحق المغرب اثناء ارهاق وقد وصف ابن حوقل ثراء المغاربة الوافر في ذلك العصر .

وفي عهد بنى عامر وبنى زبرى اتسعت شبكة نفوذ الحضارة الاندلسية فبلغ  
اشعاعها جبال فازاز في قلب الاطلس حيث هاجر بعض القرطبيين .

وكانت سجلماسة مركزا تجاريا تتوارد عليه القوافل من البصرة والكوفة وبغداد  
كما كانت تصل الى تافيلالت - كما يقول جورج مارسى - قوافل مدينة تلمسان  
التي تنصب عليها افواج التجار المسيحيين والمسلمين

وقد أكد الجغرافى ابن خرداذ به في القرن الثالث أن التجار الصقالبة الذين  
كانوا ينتقلون في جميع مناطق العالم كانوا يصلون الى السوس الادنى عن طريق  
طنجة ومن هناك يتوجهون نحو افريقية ومصر .

وفى شرق المغرب كانت وجدة التى أسسها زيرى بن عطية واتخذها عاصمة له  
محاطة بالحدايق والغابات ومنها أرسل ابن عطية الى الحاجب ابن أبي عامر الهدايا الثمينة  
التى تحتوى على رقيق المنسوج وذكى العطر وتمر نادر الوجود على قدر الخيار ،  
وفى ايفلى حاضرة سنوس كان قصب السكر موفورا حيث حدثنا البكرى أن السكر  
كان يباع مثقالين للقنطار اذ بربع درهم كان الناس يحملون منه ما يشاءون .  
وهكذا يتجلى لنا أن المغرب عرف فى القرون الاربعة الاولى للهجرة الوفرة والثراء  
والطمأنينة النسبية .

وقد أكد طيراس أن وجود بعض الضيع منتشرة هنا وهناك وانتشار السكان يدلان  
على ان المغرب كان يتمتع بالامن الكافى

فعند ما استولى المرابطون على الحكم وجدوا اذن المغرب وفير الموارد هادئا هدوءا  
نسبيا ولكنهم دعموا وحدة المغرب ووسعوا رقعته وبدأوا احتلال الاندلس الذى امتد  
منذ ذلك نحو من ثلاثة قرون وكان للتبادل المغربى الاندلسى أثناءه أثره الفعال فى  
تكثيف الاقتصاد الوطنى وتوسيع موارده ومصادره فى دائرة الاشعاع العام المتبادل .  
وقد شجعوا - رغم انشاقهم من قلب الصحراء - على الاستقرار الحضرى  
وبنوا مدينة مراكش على بعد نحو ثلاثين كيلومتر من أغمات التى كانت مركزا لتموين  
مجموع الصحراء كما ساهموا فى ازدهار فاس وبالرغم عن الاضطرابات العارضة التى  
تخللت الثورة الصنهاجية « ما لبث المغرب المرابطى ان استعاد هدوءه وأصبح كما يقول  
طيراس مزدهرا غنيا » -

وقد اتسعت رقعة المغرب من جديد فبلغت طرابلس أيام الموحدين واكتملت بذلك  
وحدة الغرب والاندلس الى ابعاد الحدود ومسحت الاراضى الافريقية دعما للتنظيم الجبائى  
حتى بلغت مداخيل الخراج « وقر ISO بغلا هذا فى افريقية وحدها خلا بجاية واعمالها  
وقلمسان واعمالها والمغرب » ( المعجب ص 155 ) ولم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء  
عبد المومن اريكه الملك حتى « كانت منجزاته تنير الاعجاب » وعمت الرفاهية مجموع  
البلاد كما يقول طيراس الذى أكد أيضا ان مدن المغرب بلغت من الازدهار ما لم يسبق  
لها أن بلغت من قبل اما فى الاندلس فان النظام الذى أقره الموحدون فى مجموع البلاد  
قد جعل حدا - حسبما اوضح ذلك اندرى جوليان فى تاريخ افريقيا الشمالية -  
للفوضى المالية التى كان يتخبط فيها ملوك الطوائف وقد شجع الموحدون الفلاحة التى  
كانت ضيع المنارة التجريبية (I) تنم عن ازدهارها حتى وصفها رحالة انجليزى زار

(I) ولما ولى محمد بن واجاج فى أول ايام الموحدين بلاد المغرب غرس بحيرات  
فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع الحمل بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها وحب  
زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها وحب زيتون بحيرة تازة بـ 65  
ألف دينار ( الروض الهمتون ص 3 )

مراكش عام 1741 بانها أجمل بقعة في افريقيا ( دو كاستر ) وازدهرت الصناعة فى عهدهم وأصبحت سبتة فى طليعة مراكز انتاج الورق الذى لم يكن يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة الشهرير وقد أحصيت فى فاس وحدها زمن المنصور والناصر الموحديين 3094 من أطرزة النسيج و 47 معملا للصابون و 86 معملا للدباغة و 816 للصباغة و I2 معملا لتسييك الحديد والنجاس و II معملا للزجاج و I35 مصنعا للجير و II70 فرنا للجير و 400 معمل لصنع الكاغد (I) علاوة على المطاحن والمعاصر ومعامل الحرف التقليدية وكان المغرب يستغل اذ ذلك قسما من ثروته المعدنية مثل معادن الحديد الموجودة بين سلا ومراكش ومعادن الفضة قرب مكناس وفى سوس حيث « النحاس والتوتية التى يصبغ بها النحاس الاحمر فيصير أصفر » ( المعجب ص 224 )

وفى نفس الوقت أمست مراسى المملكة مراكز لحركة تجارية قوية ومبادلات مع بيزه وجنوة والبندقية ومرسيلية وقد أكد اندرى أن المسلمين الذين كانوا حينذاك أول من نظم أساليبهم التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية قد طوروا أنظمتهم التى اقتبس منها المسيحيون « وكانت أربعمائة قطعة من الاسطول الموحدى الذى كان أول اسطول فى المتوسط حسب ( أندرى جوليان ) تمخر عباب المتوسط بدون انقطاع بين تونس وهران وعاصمة الجزائر لحماية السواحل .

وقد تضاعف التبادل بين المغرب وتونس فتفتقت مظاهر الحضارة ومراسم العمارة والاساليب الصناعية وبنيت بين الرباط وسلا قنطرة من الحجارة والحشب ومقصورة فى مسجد بمراكش انبهر الناس لاساليبها المكانية كما اقيمت قنوات الري على يد مهندسين اندلسيين هذا علاوة على الجهاز الاجتماعى النادر المثال مثل مارستان مراكش المجهز بالاشجار والبيوت المرحية والفرش والاطعمة والملبوسات والصيدلية ثم الاطباء والاشربة والادهان والاكحال ( المعجب ص 177 )

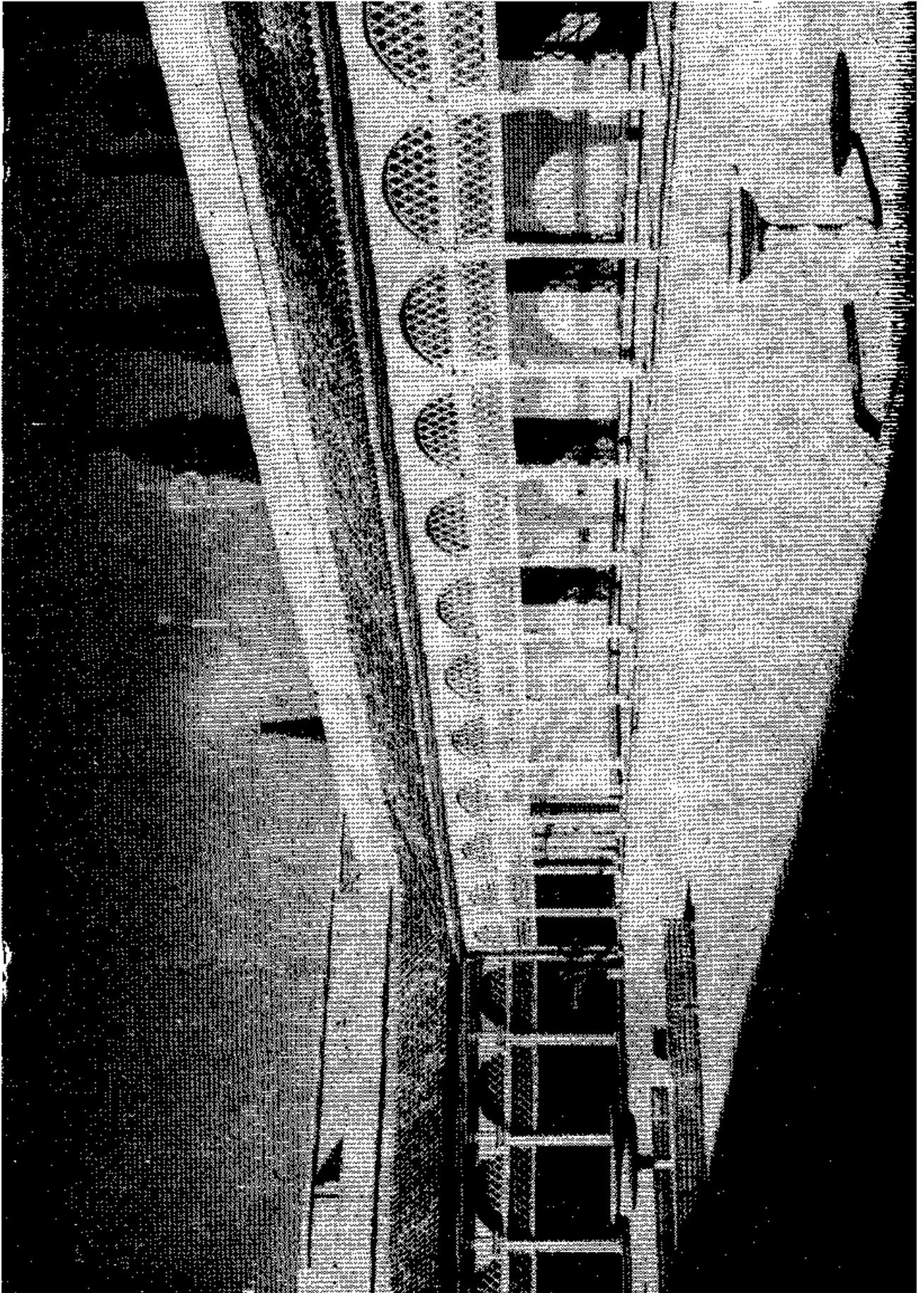
وقد ازدهرت حركة البناء والفن المعمارى لاسيما فى عهد المنصور حيث تم بناء الرباط ومنارات حسان والكتبية واشبيلية وغيرها من الاعمال الكبرى وقد أشار صاحب المعجب الى ما امتاز به هذا العهد من كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق واتساع معاش ولم ير أهل المغرب أياما قط مثلها واستمر هذا صدرا من أيام أبى يوسف « (ص 156) ولكن بعد المنصور توقفت الحركة الاقتصادية ومنها حركة البناء التى شلت نحو القرن لا سيما بعد وقعة العقاب التى انهزم فيها المغرب واندرحت جيوشه فى الاندلس فكان ذلك نذير انهيار للدولة الموحدية وكان مما حدا المرينيين الى دخول المغرب ما أصابها بعد غزوة العقاب حيث « اقفرت البلاد » التى ظلت مع ذلك جذابة « بخصبها ونقاء هوائها وسعة مسارحها ومراعيتها وعذوبة مياحيها وكثرة انهارها والتفاف أشجارها وبركات ثمارها » ( الذخيرة السنية ص 24 ) ولم تكن لتقضى عليها أزمة عابرة فقد

وجد المرينيون مغربا وفير السكان غنيا برجاله وموارده تذكىه حركة اقتصادية قوية وتطبعه حضارة يانعة بميسمها الرقيق ولعل من أبرز مظاهر الازدهار الاقتصادى قوة النقود الاقتنائية لان العملة هى معيار ثراء الدولة فقد لاحظ ابن بطوطة ان القوة الشرائية بالمغرب كانت تعدل ثلاثة أضعافها بمصر مثلا واتجهت حركة البناء فى المغرب اتجاها اجتماعيا حيث تزايد عدد المدارس وازدادت الاوقاف الوافرة لتجهيزها وتسييرها ولكن عصر أبى الحسن المرينى كان نهاية عهد الازدهار وقد كان ابو الحسن على حد تعبير اندرى جوليان - أقوى ملك فى القرن الرابع عشر الميلادى »

لقد اندحر أبو الحسن فى معركة طريف وبدأت الضربات تترى على المغرب من المسيحيين وتقلص الجهود الاقتصادى بسبب طغيان عوامل الفتنة ومقتضيات التسلح لمواجهة الخطر الدايم وقد عرف المغرب أيام أبى عنان المرينى أزمة اقتصادية كادت تؤدى بحياة الاسرة المالكة وتفاحش اغلاء بسبب تضاؤل مواد العيش حتى ارتفعت قيمة منزل للسكنى بفاس الى ألف دينار وهو مبلغ باهظ فى ذلك العصر ولكن السلطان قاوم الازمة واسعف الفلاحين الذين هم قوام الحياة الاقتصادية حيث وزع عليهم مجانا الاراضى الفلاحية وأزواج البقر لحرثها .

وفى الوقت الذى احتدم الصراع بين المرينيين والسعديين بدأ البرتغاليون ينزلون ضرباتهم بالسواحل المغربية فسيطروا على اكادير ومنها راقبوا مجموع الحركة التجارية فى الجنوب واحتلوا كلا من أنفا واصيلا حيث ابتزوا خزينة أموال الوطاسيين وشرع الاسبان فى نفس الوقت فى اعتداءاتهم على مليلية وحجرة بادس وعلى الشمال عموما فتقلص النشاط الاقتصادى على اثر اختلال الامن وانخراق طرق المواصلات وتوقف معظم المزارعين عن فلاح الاراضى بعد أن هبوا تلقائيا وبدون بطاء - كما يقول طيراس - للصمود فى وجه التسرب الاجنبى وقد شوهدت تحت أسوار سبتة مجاهدون تواردوا من أقصى الجنوب لنجدة الوطن المهدد .

وهكذا اضطر المغرب الى تحمل أعباء حرب دفاعية أثرت فى اقتصادياته التى لم تستعد ازدهارها نسبيا الا بعد أن استأصل السعديون موقتا الخطر البرتغالى الدايم فعندما اعتلى الشرفاء أريكة العرش وجدوا الاقتصاد المغربى مضعضعا بسبب الاحتلال والفوضى الناتجين عن تسرب البرتغال الى المراكز المهمة فبادروا بتحرير أكادير وأقروا عدالة اجتماعية نسبية بالرجوع الى المساواة والاعتدال فى الجبايات وعمد السلطان السعدى المتخفيف عن الشعب المغربى المرهق الى احتكار بعض المواد للدولة من أجل تسديد الخصاص الذى أسفرت عنه ضلالة مداخل «النائية» لا سيما تعبئة جيش قوى استلزم من الدولة نفقات باهظة وحتى قبل هذا العصر ببضعة عقود لم يكن التوازن يتحقق بين مداخل الدولة ومصاريقها الا بشق النفس وذلك بالرغم عن موارد الدولة



التي بلغت في احدى السنوات 26 مليون فرنك (I) حسب قيمة الصرف في القرن الماضي ( انما اذا اعتبرنا الصرف قبل الحرب العالمية الاولى فيجب أن نضاعف المبلغ مائتي ضعف بحيث يصير مجموع الموارد 5,200 مليون فرنك )

ولكن انتصار المغرب في معركة وادي المخازن ازاح الخطر وأرجع للبلاد سمعتها في الخارج وجلب لصندوق الدولة من مبالغ الفداء مع ذهب السودان سيلا فياضا من الحيرات وأصبحت كثير من دول أورباتخطب ود المغرب وترسل سفراءها لتهنئة المنصور السعدي وكان المغرب على وشك الاندراج في سلك الدول العظمى باوربا لولا أن المنية أنشبت أظفارها يوم المعركة الكبرى في السلطان مولاي عبد المالك الذي « كان يتكلم اللغة الاسبانية باناقة ويحرر بها بأسلوب صحيح ويحذق الايطالية والتركية» (حسما رواه دوشافروبيير في كتابه عن تاريخ المغرب ص 316 )

وأضافت الدولة الى هذه الثروة والى موارد المحكرات الصناعية مداخل مزارع قصب السكر التي اتسع نطاقها في الجنوب وأصبحت تنافس المزارع التي غرسها مهاجرون غرناطيون في ناحية فاس حيث تكثر أشجار التوت التي اعتنى هؤلاء الاندلسيون بها توفيرا للاوراق التي يتغذى منها دود القز .

وبالقضاء على النفوذ البرتغالي استرجع الجنوب ازدهاره الاقتصادي وثروته التجارية وقد حكى لنا الرحالة مارمول عن سوق جزولة السنوي الذي كان التجار موزعين فيه على أجنحة مختلفة تبعا لنوع البضاعة وحيث كانت تسود الحرية في المعاملات وحسن النظام بين نحو العشرة آلاف من التجار الواردين من السودان وغير السودان .

ومما زاد في ازدهار تجارة المغرب الخارجية ان العملة كانت - حسبما أكد ذلك الاستاذ طيراس - من نوع جيد قار ، وللدينار الذهبي المغربي نفاق لدى التجار الانجليز الذين اغتتموا هزيمة البرتغاليين لبيع منسوجاتهم للمغرب بالذهب ومبادلتها كذلك بالسكر والجلود المدبوغة وملح البارود ومما يدل على ضخامة انتاج المغرب من السكر كون الانجليز انفسهم كانوا يستوردونه من المغرب وان المنصور الذهبي كان يستورد من ايطاليا كميات وفيرة من المرمر ويدفع في مقابلها السكر وزنا بوزن

غير أن تجارة المغرب الخارجية انتظمت بالاخص مع الاقاليم المتحدة ( وهي هولندا الحالية) لا سيما بعد معاهدة 1610 ويقال بان المنصور اقترح على هولندا اذ ذاك منحها

---

(I) ذكر كودار في تاريخه ان موارد المغرب كانت تتراوح بين 15 و 25 مليون فرنك ( ص 162 )

نرضا قدره مليون ونصف دينار (I) ( أى نحو 18 مليون فرنك بصرف ذلك العصر  
ر 600 , 3 مليون بصرف 1956 ) وهو مبلغ باهظ كنا نرتاب فى صحته لولا أن المنصور  
كان ينتهج هذه السياسة اذاء أوروبا حتى أنه منح الدون انطونيو الامير الطامع فى عرش  
البرتغال سلفا قدره 000 ر 400 ليرة (2)

أما فرنسا فان مبادلاتها مع المغرب لم تنتظم الا بعد سنة 1577 ولكن ما لبثت  
العلائق ان فترت بين البلدين عام 1616 على اثر اختلاس قنصل فرنسى لعدة ملايين  
من المجوهرات والكتب القيمة التى ائتمنها عنده المولى زيدان ( المؤرخ أندرى جولييان )  
وقد بعث المولى زيدان هذا - تقوية لمبادلات المغرب مع أوروبا - عملاء قاموا خلال  
الاقطار الاوربية بدعاية واسعة لمنتجات المغرب وسوائمه ومعادنه ( النحاس والرصاص  
والحديد والكبريت وغيرها ) ولكنه عمد فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من  
المزاحمة الاجنبية فحظر توريد بعض المنسوجات الانجليزية (3)

وكانت أهم المراسى اذ ذلك هى آسفى وأكادير وماسة أما ميناء سلا فانه لم يزدهر  
الا فيما بعد حيث بقى مدة من قرن أكثر مراكز المغرب نشاطا

وقد أمكن للمغرب ان يصدر الى انجلترا فى عهد محمد الشيخ الثانى نسيجا  
غليظا مصنوعا من الوبر وكذلك الذهب والزيت والسكر فى مقابل الحديد والرصاص  
والقصدير وكانت تبدو من انجلترا بوادى اطماع بالمغرب ومن جملة ما كانت ترونو الى  
استغلاله ملاحات الرباط وسلا التى كانوا يعتبرونها - كما أورد ذلك دو كاسترفى وثائقه -  
كافية لاستهلاك مجموع البلاد البريطانية وكانت الاطماع الانجليزية تثير اطماع دول  
أخرى ويتمنخض التنافس بين الدول عن تشجيع بعض رؤوس الفتنة من المغاربة على  
اشاعة القلاقل والفوضى للاصطياد فى الماء العكر وكان من نتائج ذلك تقلص المبادلات  
الداخلية بين الشمال الذى كان ينتج المنسوجات والكتان والزيت والحزف ومواد  
الحياطة والجنوب الذى كان يبيع المواد الخام وقد شوهدت خلال عدة شهور قوافل من  
الجمال ( ما بين 1000 و 1500 جمل ) تعبر وادى ابى رقراق يوميا حاملة قموح الغرب

(1) - وثائق دو كاستر ج 1 ص 528

(2) ايد المنصور بايعاز من ملكة انجلترا - ترشيح انطونيو لعرش البرتغال  
واسلفه 400 000 جنيه ضمانتها استرهان الامير كريستوف نجل انطونيو فى القصر  
السعدى حيث مكث ثلاث سنين ناعم البال موفور الحال ثم رده فى الاخير لوالده بعد  
استشفاع اليزابيت دو كاستر ( ج 1 ص 3 )

(3) - فى عام 1617 اصدر مولاي زيدان الى هولندا ستة آلاف من الجلد البقرى  
ومئة وثلاثين صندوقا من السكر ثلاثمائة قنطار من العود الذى يصبغ به  
وفى عام 1625 17 250 رطلا من النحاس

الى الجنوب ( كاييى فى تاريخ الرباط ص 54 )

غير ان العدوان الاجنبى على المغرب فى اواخر السعديين استفحل واقتطع الانجليز والاسبان والبرتغاليون لانفسهم من تراب المغرب مراكز زادت فى الاضطراب الداخلى والفتور الاقتصادى .

وكان اول عمل قام به مولاي رشيد ، هو القضاء على النفوذ الانجليزى فى الشمال باستئصال شافة الحضرة غيلان الذى كان صنيعة الانجليز ثم حرر المولى اسماعيل المراسى التى كان يحتلها العدو وسعى فى تحقيق الوحدة بين اجزاء البلاد وقيد أكد اندرى جوليان ان عناية المولى اسماعيل بتقوية نشاط المغرب الاقتصادى لم يكن اقل من اهتمامه بالنزب عن حوزة البلاد وقد قال قنصل فرنسى عنه بانه كان يسعى فى تقوية رعاياه وتنمية ثرواتهم عن طريق التجارة التى كان يفضلها على القرصنة

وما كادت تمر سنتان على تحرير اصيلا عام 1691 ( يقول روبر ريكار بأن اصيلا لم تقع فى قبضة أية دولة أجنبية منذ 1589 وهو خلاف المتعارف - انظر هسبريس ج 33 ص 201 ) حتى استأنف المغرب مبادلاته مع أوروبا حسب رواية «دوسان اولون» فاصبحت فاس مخزنا عاما لمجموع المغرب تمتد اصيلا من سلا وتطوان ويجلب المغرب مختلف البضائع من اسبانيا وانجلترا وهولندا وايطاليا ، وكانت الواجبات الجمركية المفروضة على الواردات والصادرات تبلغ احيانا 25 فى المائة ، وتلى مدينة فاس فى الاهمية مدن أربع، توزعت فيما بينها النشاط التجارى وهى مراكش وتارودانت وايليج ومدينة مكناس التى كانت اول سوق للحبوب بالمغرب

وقد قضى سيدى محمد بن عبد الله على التهريب فى الجنوب بعد احتلال البريجة ( الجديدة ) وتأسيس الصويرة واضطر - ازاء دسائس بعض دول أوروبا اللاتينية - الى التعامل مع دول بروكستانية مثل انجلترا والسويد والدنمارك التى عقد معها معاهدات تجارة وصدقة كما عقد - قبل وفاته بضع سنوات - معاهدة تجارة وملاحة لمدة خمسين سنة مع الولايات المتحدة وهذه المعاهدة المؤرخة بـ 16 يوليوز - 1786 قد جددت عام 1836

وقد عرف المغرب ايام سيدى محمد بن عبد الله عهد رفاهية وسلام وكان للدولة ثروة موفورة حيث بلغت موارد مكوس فاس سنويا 500 الف مثقال اى 2.500.000 فرنك بصرف ذلك الوقت ( سوردون فى كتابه عن افريقيا الشمالية ص 241 ) وقد ذكر صاحب درة السلوك ان السلطان تصدق خلال أزمة الجفاف التى استمرت خمس سنوات بـ 500 مليون دينار وهو مبلغ باهظ نشك فى صحته وان كان هنالك ما يؤكد أن الدولة وزعت اذ ذاك على المدن والبوادي الاقوات ومختلف الاعانات المادية ، وقد عمد السلطان ضمانا لتموين البلاد بالمواد الحيوية - الى منح قروض لدور تجارية تكفلت بجلب تلك المواد من الخارج وبيعها بثمان بخس ، وقد ورد من جهة اخرى أن مولاي احمد الذهبى

وزع غداةاغتلاؤه اريكة العرش 200.000 دينار ذهبي اى نحو 260 مليون فرنك وقد وجد فى بيت المال أزيد من مائتى مليون .

وقد ظل المغرب غنيا مما حدا مولاي اسماعيل الى الغناء المكوس والجبليات المفروضة على البضائع وكانت هذه تكفى وحدها لتسديد نفقات الدولة ، وقد عدل السلطان حتى عن احتكار التجارة الخارجية ولكنه أسس الديوانات فى المراسى المفتوحة وأقام عليها أمناء لمراقبة المداخيل الجمركية وكان المغرب يصدر الى اوربا فائض منتوجاته ففى عام 1260 أصدر عن طريق الصويرة وحدها 75.000 طن من القمح والقطاني وقد قدر مبلغ رواج هذا الميناء الفتى عام 1267 هـ بستة ملايين فرنك واستمر نشاطه الى عام 1911 حيث زارته 462 باخرة واصدر المغرب عن طريقه 38000 طن من المنتوجات المغربية فى مقابل واردات لا تعدو حمولتها 12.000 طن اى أقل من ثلث الصادرات وفى سنة وفاة السلطان مولاي عبد الرحمن اى منذ قرن كان فى المغرب - حسبما ورد فى كتاب قضية المغرب لم . لامار تنيير الصادر فى نفس السنة أى عام 1859) 48مليون رأس من الغنم و 6 ملايين من البقر . (I)

اما الصناعة ففى أواخر أيام السلطان مولاي عبد الرحمن كانت الرباط وسلا تحتلان الدرجة الثالثة فى ضخامة الانتاج بعد فاس ومراكش وقد انتجتا معا 840 زربية صدرتثلثها الى الخارج و63.200 حايك و460.800 سببية ومآت «الحرق» من المنسوجات وكانت المنتجات المغربية مشهورة فى أوروبا بمتانتها وجمالها وكان بالمدينتين علاوة على ذلك 150 معملا « للبلغة » 40دارا للديباغة و 10 دور للصبغة وثلاث دور لضرب السكة تقوم بتدوير تسعة قناطر من المواد الاولية كل يوم وكان نظام الحناطى يعمل فى اطار من الحرية الكاملة ولم يفسد - حسب اعتراف م باليس (2) الا بالاحتكاك مع نظريات اوربا وكان المخزن يحترم حرية التجارة وقد قام الاستاذ ماسينيون عام 1924 بتحقيق حول «الحناطى» فى فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكدلديه ان عدد رجال الحرب فى هذه المدن يعادل مبدئيا نصف عددالسكان فى نفس المدن والفتور الذى لحق الصناعة الاهلية هو من الاسباب التى تمنخضت عنها البطالة بالاضافة الى هجرة البدويين الى الحواضر وتكاثر مدن القصدير الناتجين عن سياسة الافقار التى نهجتها الحماية فى البادية على الخصوص

اما الفلاحة فالظاهر انها كانت مزدهرة والشىء الذى يلاحظ بضرورة عامة ان الثروة الفلاحية من محاصيل وغابات على الخصوص كانت فى مختلف العصور اوفر منها

(I) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية رقم 49 و 50 .  
(2) كان المغرب يملك فى عهد مولاي عبد الرحمن 40 مليون رأس غنم وما بين 10 و 12 مليون معز و 5 الى 6 ملايين رأس بقر وخمسة ملايين من الجمال والافراس والحمير والبغال ( كودار ص 188 ) .

اليوم فقد وصف لنا هارمول غابات انمحي اثرها اليوم ووصف لنا الحسن ابن الوزان المعروف بليون الافريقي بحيرة الجبل الاخضر حيث كان هو نفسه يصطاد السمك وقد غاضت هذه البحيرة الآن .

وكانت حقائق اكدال بمراكش عبارة عن ضيع تجريبية حيث تغرس أنواع شتى من الازهار والرياحين المجلوبة من أوروبا .

وكان القطن يفرس في النواحي التي لاتعلو كثيرا عن سطح البحر وحول المدن الكبرى منذ اوائل العصور الوسطى بل وحتى قبل الفتح الاسلامي ولكن في عام 1866 كتب نائب القنصل الفرنسي بالدار البيضاء تيودور جيلبير تقريراً (I) ذكر فيه ان انجلترا شجعت في عام 1864 رعاياها القاطنين بالمغرب على زرع القطن في ناحية الجديدة فانتجت دكالة وحدها عام 1865 نحو 400 قنطار قيمتها 100.000 فرنك ذهبية اي ازيد من 20 مليون فرنك بالصرف الحالي وهو مبلغ لا بأس به اذا قورن بقيمة مجموع صادرات المغرب التي بلغت في نفس الوقت 22 مليون فرنك ذهبية اي 4.400 مليون بالصرف الحالي وكان في هذا القطن المغربي نوعان معروفان في أوروبا « سي - ايسلاند » لهما سدى حريري طويل من الطراز الامريكى الذي تقبل عليه أوروبا عظيم الاقبال وكذلك أورليان الجديدة وكانت المصانع المحلية هي التي تنقى القطن الخام من الحبوب بواسطة الآلات .

وكان الانتاج الفلاحي يقوى ويضعف تبعا للمؤثرات الجوية كما هو الحال اليوم ومن جملة النكبات التي كانت تتوالى على المغرب علاوة عن الجفاف غارات الجراد غير ان الحكومة المغربية كانت تقاومها بوسائلها البدائية فتدعو السكان الى جمع بيض الجراد وتشتره منهم بثلاثة ريات للقنطار ثم تقذف به في البحر على ان البدو كانوا يحفرون خنادق حول ضيعاتهم لصد هجوم الجنادب وكان آخرون يحيطون هذه الخنادق بصفائح من القصدير كحافز وقائي من هذا الهجوم

وقد اعتنى السلطان سيدى محمد بن عبد الرحمن بزراعة قصب السكر وحاول استقدام فنيين اوربيين فابوا فجلب اختصاصيين مصريين لمباشرة تصفية السكر في مصنع اكدال بمراكش (الاتحافج 3 ص 556) ومعلوم ان سيدى محمد بن عبد الرحمن كان يهتم عند ما كان خليفة لوالده بمراكش بترقية أساليب الفلاحة على وجه العموم فجلب آلة لدرس الزرع ذات اربعة افراس وعدة آلات اخرى كما جدد حفر قنوات السقي وحاول حفر «بار على الطريقة العصرية وتأسست مصانع وطنية وبالاخص مصانع النسيج وقد احال الامير بعض اراضى الرحمانه الى جنان مزهرة

ولكن منذ احتلال فرنسا للجزائر بدأت النكبات تترى على المغرب الذى انهزم في معركة ايسلى ، ثم فى حرب تطوان فاجبر على امضاء معاهدات لم تستفد منها سوى

(I) نفس المصدر رقم 51 .



السدود وتوليد الكهرباء

أوروبا وعلى اداء غرامات فادحة (نحو 20مليون بسطة لاسبانيا و 50 الف جنيه لانجلترا) وهذه الدبلوماسية المالية - كما يسميها اندري جوليان - هي التي حدثت بعض الدول التي كانت تعمل على التعجيل بانهياء المغرب الاقصادى للسيطرة عليه سياسيا - الى الضغط عليه لمنحه قروضا متواليه (62 مليون ونصف مليون عام 1904 و 100 مليون عام 1907) وتسليمه كمصر مكتوف الايدي الى دول جشعة وكان المغرب يتوفر لحد الآن على «مالية وفيرة» و «حساب منتظم» كما يقول جوليان - فارتهن مستقبله وتوالت الدسائس والاتفاقات السرية التي تمخضت عن ازمة خطيرة ادت الى اجبار المغرب على قبول الحماية وسياسة التصنيع التي بدأ المغرب ينفجها الآن تبشر بالاضافة الى برنامج الانعاش الوطنى بكل خير فى هذا المرفق الحيوى من الاقصاد المغربى .

فاستعمار المغرب الاقصادى بدأ اذن قبل الاستعمار السياسى وقد استقل المغرب الآن ولكنه ما زال أم يتجرد من رواسب الاستعمار الاقصادى فالواجب يقضى بمضاعفة الجهود من اجل ابراز ذاتيتنا الاقصادية كنتيجة محتومة لاسترجاعنا للذاتية السياسية؛ ولكن ذلك لا يتم وأن يتم الا اذا نهجنا سياسة اكنفاية فى الكماليات واشباه الكماليات كما وقع فى بعض دول آسيا - ووسعنا نطاق التصنيع مع ترقية الاساليب فى الحرف التي نتج عن انهيارها ظهور جيش من العاطلين الذين يتعين شغل القسط البدوى منهم فى استغلال الاراضى الزراعية الصالحة فمقدراتنا موفورة وبلاد غنية كالمغرب من شأنها ان تصبح جنة وان يرتفع مستوى عيش مجموع سكانها اذا عرفت كيف تنقشف سنوات لتعيش فى الرفاهية دهورا .



## الفصل السابع :

### الصناعة التقليدية

بلد لنا - والمغرب الجديد ساع في تطوير الصناعة التقليدية وانعاشها - ان نعطي صورة عن ازدهار هذه الصناعة في مختلف العصور وعن مصادر اقتباسها ومدى تغلغلها في شتى الاوساط الاجتماعية التي كانت تجد فيها موردا خصبا للعيش )

ذكر الحسن بن محمد الوزان في وصف افريقيا الذي حلله ماسينيون في كتابه « المغرب في السنوات الاولى للقرن السادس عشر الميلادي » المطبوع عام 1906 ) ان المغرب كان ينقسم في عصره من الوجهة الصناعية الى خمس نواح

I) ناحية فاس التي تشمل حتى الريف وتوجد بهذه الناحية الانسجة الغليظة المصنوعة بالاختصاص في الجبال المجاورة في الهبط والريف وقاظة وثياب الصوف من زرهون وبني يازغة التي هي في مثل ليونة الحرير زد على ذلك الاسلحة والسكاكين والسيوف المصنوعة بمدينة فاس بالحديد المجلوب من مناجم بني سعيد المجاورة او الاعوان او الجنوب ) والفحم والمصنوعات الخشبية ( خشب الريف ) والحزف ( من مزدغة ) والصابون ( وهو من اختصاصات بني مزكلدة ) ويزرع القنب والكتان في احواز فاس التي تصنع منه الجبال والمنسوجات فتوزعها على جميع أنحاء المغرب

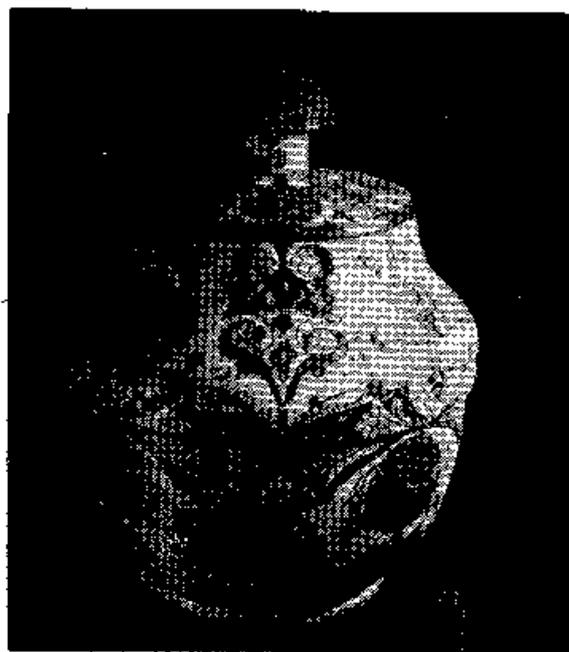
ولكن مدينة فاس تجلب من النواحي النائية الجلود التي تصنع منها أجهزة الفرس والاحذية وانواع التجليد بعد الدباغة كما تجلب النحاس لصنع الاواني والتوابل التي تركزها من اجل اصدارها الى شمال البلاد ثم الحراير ( تربى دودة القز في احواز فاس ) والقطن لصنع القطنيات ( ص 96 )

2 ) ناحية الهبط الساحلية الى حاحة فقد دمرها الغزو البرتغالي فأفل نجمها كعامل صناعي مهم في القرن العاشر الهجري فقد كانت ناحية سبتة تصنع اواني النحاس المنحوتة والمرصعة - وتصدرها حتى الى البلاد الايطالية ولكن الحسن الوزان لم يشر الى غير القطنيات في العرائش والقصر الكبير وسلا حيث تتوافر دكاكين الافاوية وأدوات الخياطة التي تستعملها النساء وفي ناحية تامسنا حيث الاسكافيون والحدادون وصناع الجوارب والصباغون والحزافون وكانت هذه الناحية على وجه العموم

مركزا تجاريا للبرتغال الذين قضوا على مصانعها وصاروا يمدونها بالثياب القطنية والصوفية بعد أن كانت أصواف المدينة ( مدينة بوالاعوان ؟ ) مشهورة وقد ذكر الادريسي أن القطن موجود في تادلا وأشار الحسن الوزان الى وجوده في سلا والعرائش ( ماسينيون - ص 88 )

وقد زرع القطن بالمغرب في أرباض كبريات المدن منذ العصور الوسطى وقد شجعت انجلترا رعاياها عام 1864 ) لزرع القطن في ناحية الجديدة فبلغ منتوجه عام 1865 أربعمائة قنطار وتأسست في نفس المكان مصانع لمعالجة هذا القطن الحريري الشبيه بالقطن الامريكى ( النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب رقم 51 )

3) ناحية هسكورة وتادلا حيث تركزت الصناعة الاهلية وراء شواحق الاطلس ففي هسكورة تكثر مناسج الصوف والسروج وفي تادلا البرانس السود (المراكشية) والطواكي ومع ازدهار الصناعة في هذه الناحية كانت تجلب من فاس المنسوجات وادوات الحياطة والسكاكين والجلود بل كانت تادلا تفضل سروج فاس على سروج هسكورة .



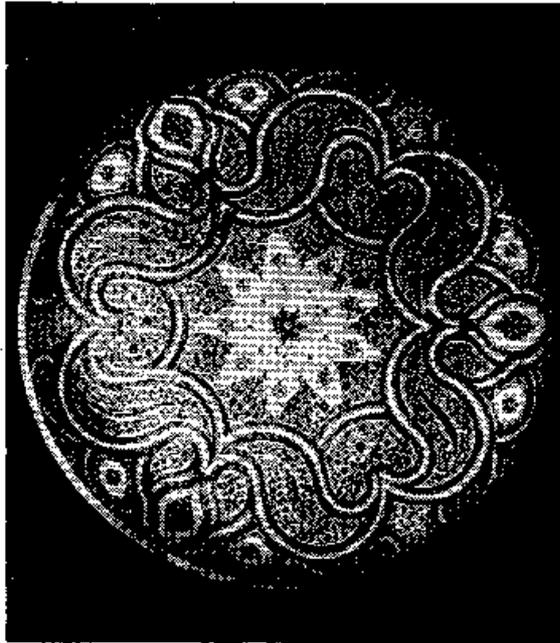
الفخار الفاسى برسومه الملونة الخلابه

4) صنع سوس حيث يصاغ الذهب والفضة وتصنع المواد الجلدية والثياب ولكن البرتغال صارت تنافس المصانع الوطنية بعد احتلال أكادير التي حررها السعديون في القرن العاشر .

5) الأودية العليا في زيزوكير حيث يستورد السكان مصنوعات فاس اللهم  
إلا ما كان من الحديد والانسجة الصوفية الجميلة التي تصنع فجيج خير أنواعها  
( نوع ميرينوس الحريري ) والجلود المحضرة في تدغة ويصدر السودانيون إلى هذه  
الناحية القطنيات السوداء ( ص 96 إلى 99 ) .

ويتبين من هذا العرض أن الصناعة كانت مزدهرة في مختلف نواحي المغرب  
حتى القاصية منها والبدوية .

وكانت أوجه النشاط تختلف باختلاف الاستعدادات الطبيعية للناحية وتبعاً  
للمؤثرات الاقتصادية العامة التي تتطور أو تنقلص مع العصور .



وعاء من الخزف الأزرق منقوش بفاس

ففي خصوص السكر مثلاً ذكر البكري ( ص 161 ) ( القرن الخامس ) أن  
قصبه كان موجوداً في إيكل قاعدة بلد السوس ومنها يحمل إلى جميع أنحاء المغرب ويصنع  
منه الشيء الكثير حتى صار يباع القنطار منه بمئتاين (1)  
ويعالج في نفس المدينة النحاس المسبوك .

(1) كانت مياه وادي سوس قديماً تجمع كلها لسقي مزارع قصب السكر في سوس  
الذي كان هو السوق الأعظم لتجارة السكر في باقي أنحاء المغرب وفي السودان  
(دوكامبوس ص 169)

على أن الروح الصناعية وكذلك التجارية كانت سارية في السوسيين وأهل الجنوب عموما منذ القديم فقد ذكر البكري أيضا ( ص 163 ) أن أهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب)



غزالة من المعدن منقوشة بأسلاك فضية  
( صناعة مكناس )

وذكر صاحب المعجم أن مدينة أغمات يدبغ بها جلود تفوق جودة صنعها جلود الدنيا وذكر الادريسي (القرن السادس) ( وصف افريقيا ص 43 ) أن أهل أغمات ( أملياء تجار مياسير يدخلون الى بلد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطر الاموال من النحاس الاحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الافاوية والعطر وآلات الحديد ) ( I )

(I) لاحظ دوكامبو ( مملكة تنهار ص 123 ) ان المغرب كان يصدر الى السنغال الاحذية من نوع البلغة والى الجزائر زرابى الرباط والدار البيضاء وحيك وبلاغي فاس علاوة على البغال والافراس وزرابى الرباط مشهورة ، باستقرار الوانها ويصنع منها نحو أربعة آلاف فى السنة تصدر ثلاثة أرباعها الى أوروبا وزرابى الدار البيضاء أقل قيمة منها من حيث اللون وذكر دوكامبو فى محل آخر ( ص 236 ) أن عدد مصانع الزرابى فى سلا والرباط خمسون ودور الدبغ 40 ودكاكين صنع البلغة 350 .

وذكر ياقوت في المعجم ( القرن السابع ) أن لنساء - سجماسة يد صناعة في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الازر تفوق الذي بمصر يبلغ ثمن الازار خمسة وثلاثين دينارا وأكثر ويعملن منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغنها بأنواع الاصباغ ) ( ج 5 ص 41 )

وكانت الصنائع تؤدي القبالات ( أى الضرائب ) = قال الادريسي ( وصف افريقيا ص 45 ) = كانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان ( السفنج ) والصابون والصفير والمغازل وكانت القبالة على كل شيء يباع فلما ولي المصادمة قطعوا القبالات )

وتعتبر مدينة فاس عاصمة الصناعة التقليدية منذ العصور الاولى وقد وصف الحسن الوزان في القرن العاشر مصانعها ( ماسينيون ص 228 ) فلاحظ أن بالصفة اليمنى لوادي فاس كانت تقوم مصانع التغذية باستثناء الجزرة ) واللباس والبناء بينما كانت صناعة الجلود والمعادن تعالج خارج عدوة الاندلس .

وتجلب للصفة اليسرى المواد المصنوعة بفاس أو خارج فاس في أهراء وتباع بالمزاد لتجار التفصيل .

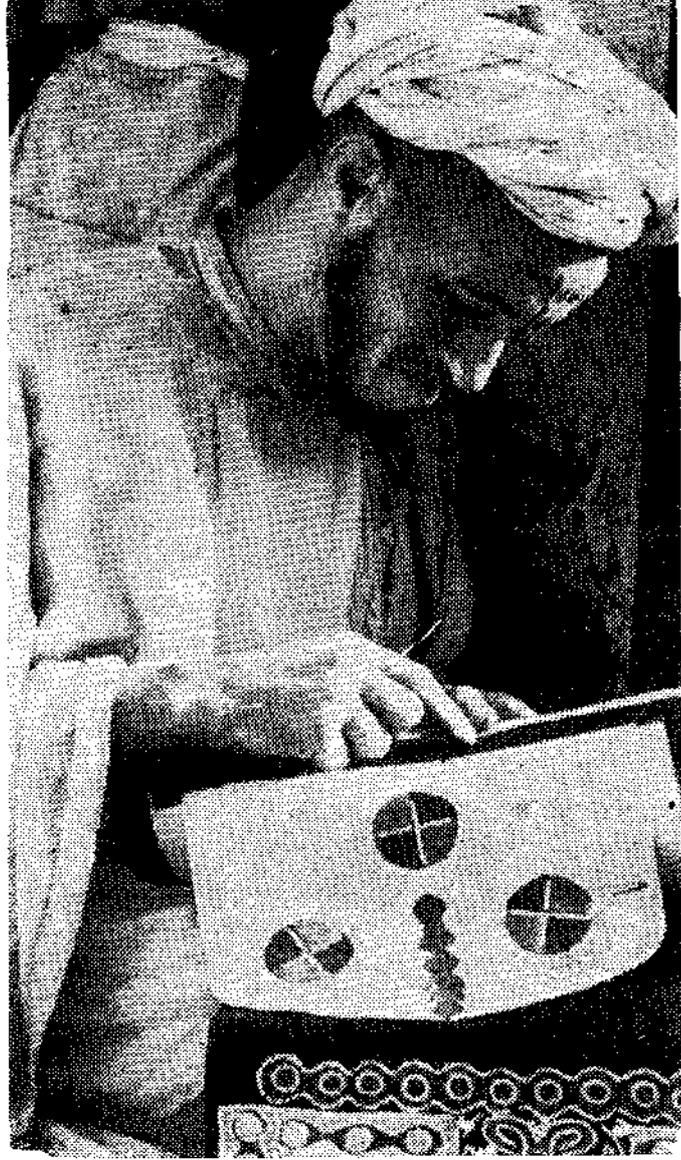
أما الحرف المتوافرة بفاس فقد أعطى مختلف الرحالين والمؤرخين وصفا شاملا عنها في شتى العصور وهي لا تكاد تقل عنها في أيام ازدهارها الى العهود الاخيرة من تاريخنا الحديث قبل مزاحمة الصناعة الحديثة لها ( راجع ماسينيون من ص 231 الى 234 )

وأما الصناعة الفاسية الكبرى فقد كانت متركرة حول قنوات ساقية مصمودة ووادي فاس غربى المدينة وجنوبى غربها وكان بها 520 معملا للنسيج ( الدرازة ) تستخدم 20.000 عامل و 360 طاحونة لم يبق منها عام 1904 سوى 160 يعمل فيها نفس العدد من العمال والحمالين و50 من دور التصبين ( القصارين ) زيادة على المائة الموجودة على الوادى قرب بوجلود .

وكان بجانب حارة الجذمي خارج المدينة ربض الكيفان حيث الصفايحية والنجارون والبنامون .

وذكر ياقوت ( المتوفى عام 626هـ ) في المعجم ( ج 6 ص 331 ) أن بفاس 600 رحي لا تبطل ليلا ولا نهارا وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها الا غرناطة )

وقد ذكر الجزنائي ( زهرة الآس ص 33 ) أن في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحديين كان عدد الاطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصبغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وأفران الخبز 1179 وأحجار عمل الكاغد 400 داخل المدينة ودور الفخارة 180 خارج المدينة )



صناعة الاخراج والقماطر الجلدية بالاطلس  
والريف عريقة فى القدم

وقال المراكشى فى المعجب ( القرن السابع )  
ما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معاش وأخصب  
جهات وذلك أنها مدينة يحفها الماء ( ص 221 )

ولعل ذلك راجح لكون فاس كانت مهذا لازدواج الحضارتين الاندلسية والمغربية فقد ذكر دوزي أن ثمانية آلاف عائلة قرطبية (I) هاجرت الى فاس حيث وجدت جالية قيروانية قد سبقتها الى المدينة ( ثلاثمائة عائلة ) وكان العرب عملة وتجارا بينما كان الاندلسيون يشتغلون بالاعمال الفلاحية ( تاريخ مسلمي اسبانيا ص 301 ) وفي نفس الوقت هاجر خمسة عشر الف قرطبي الى الاسكندرية فاحتلوها ثم أخرجوا منها فاتجهوا الى جزيرة قريطش حيث أسس عمر البلوطي مملكة استمرت الى عام 961 ففتح اليونان الجزيرة ( ص 301 )

ونقل المقرئ عن ابن غالب ( النفع ج 2 ص 764 ) أن أهل الاندلس تفرقوا بعد الفتنة في المغرب الأقصى مع افريقية فمال أهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الاشجار وأحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء لم يكونوا يعلمونها فكثرت مستغلاتهم وعمت الحيرات ومال أهل الحواضر الى المدن فاستوطنوها .

ففاق أهل الصنائع أهل البلاد وصيروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين أيديهم ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ( وفي عام 1019 خرجت الوف من أهل الاندلس بفاس وألوف بتلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الاعراب ونهبوا أموالهم وهذا في تلمسان وفاس والذين خرجوا بنواحي تونس سلم اكثرهم وكذلك بتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل منهم جماعة الى قسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام ، ( نشر المثاني عن النفع ص 101 ) وقد ظهر اثر ذلك حتى في تونس فان جانبا من الطبقة المتمدنة الغنية من الاندلس نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم الحفصيون ( حسن حسني عبد الوهاب في رسالة له بالفرنسية )

وقد ذكر المقرئ في النفع ( ج I ص 104 ) في حديثه عن الصناعة في الاندلس ان الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لان هذا عندهم في نهاية القبح «

وكان النظام الاقتصادي محكما نوعا ما في الاندلس من ذلك نظام التسعير ومراقبة الاثمان فهذا اللحم تكون عليه ورقة بسعره ولا يجسر الجزاران يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب في ورقة ( النفع ج I ص 203 )

ومعلوم ان المحتسب هو الذي كان يسير دوايب الحياة الاقتصادية في كل مدينة

(I) ذكر عبد الملك الوراق ان عدد العرب الوافدين من الاندلس الى عدوة الاندلس بفاس كان غفيرا ، يقال أربعة آلاف أهل بيت ( الاستقصا ج I ص 73 ) .

فهو الذى يشرف على الحناطى ويراقبها ويراقب الاسواق والمكاييل والموازين وهو الحكم الذى يرجع اليه فصل الدعاوى بين التجار والصناع والمحترفين

وبالجملة فقد كانت له السلطة الكاملة فى ميدانى التجارة والاقتصاد

وقد تحدث م . باليز ( النشرة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب فى عددي 49 و 50 ) عن نظام الحناطى بالمغرب فلاحظ انه كان يتسم فى جميع العصور بطابع الحرية حيث أن المخزن كان يحترم مبدأ الحرية التجارية قبل صدور ظهير 1917 القاضى بتنظيم البلديات وفى فاس بالخصوص كان هذا النظام حرا جدا وانما فسد بالاختكاك بالمغرب



وعاء خزفى

وكثيرا ما كان ملوك المغرب يهتمون برجال الصناعة ويعملون على تنمية مواردهم وضمنان مصادر لمنتجاتهم فقد بعث مولاي زيدان عملاء الى أوروبا للدعاية للمنتجات المغربية وعمد فى نفس الوقت الى حماية الصناعة الاهلية من المزاحمة الاجنبية فحظر

## توريد بعض المنسوجات الانجليزية

وكان للانديلسيين أثر في تكييف الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب لاسيما في المراكز التي استوطنوها حيث اختلف التأثير باختلاف هوية المهاجرين وطبيعة المهجر واغرب ما في الامر أن الاثر الفلاحي غلب مثلا في سلا بينما تأثرت الرباط بالطابع الارستقراطي والصناعي وكانت في الحقيقة ثلاث مدن : قسبة الاودية والرباط وسلا وان كان بعض المستشرقين يطلقون سلا الحديثة على الرباط في حين سمي الادريسي سلا الحماية بسلا الحديثة ( وصف افريقيا ص 48 ) حيث أشار الى ما كان فيها قبل بناء الرباط من « أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جدا وبها كروم وغللات وبساتين وحدائق ومزارع ومراكب أهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم » .

وقد ذكر كايبي أن في عام 1636 استولى اندلسيو سلا الحديثة ( يقصد الرباط ) على القسبة وطردها أهلها الى سلا أو الجزائر وأصبح عبد الله بن علي القصري الحاكم الوحيد فطمح الى حكم سلا فبنى قنطرة أمام حسان ( لعلها في مكان القنطرة القائمة الآن ) لنقل مدافعه وجنده فاستجند السلويون بالعيشى فخلصهم وانجلترا هي التي هدمت هذه القنطرة في نفس الوقت على يد أميرها رنسيبورغ ولعل هذا التأثير المزدوج الذي تركه الانديلسيون في بلدين متجاورتين من أغرب المظاهر التاريخية حيث تختلف الطبائع والاستعدادات بين المدينتين من النشاط ألبياض والروح التجارية عند السلويين الى ارستقراطية شبه جامدة في بعض العصور عند الرباطيين الذين اتسموا - خاصة في العقود الاخيرة بنوع من الركود الاقتصادي تمخص عنه أخلادهم الى اقتناء العقارات والتعيش من ريعها آفنين - بما طبع عليه الكثير منهم من كبرياء - من ممارسة أعمال التجارة والفلاحة هذا بينما كان بين اسرهم البورجوازية من تغرب وأسس المراكز التجارية في الشرق ودول أوروبا ونحن نرى هاتين الطبيعتين مزدوجتين في فاس وتطوان مثلا وهذا يفسر لنا - بعض الشيء - العوامل الحضارية والتاريخية التي جعلت من هذا المركز أو ذاك مركزا صناعيا أو فلاحيا أو هما معا .

وقد ذكر سرفانطيس مؤلف دون كيشوط في بعض رسائله أن الانديلسيين العرب كانوا يحتكرون حتى بعد سقوط الاندلس تجارة الاغذية ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها ومنهم تجار البقالة والماشية والقصابون والحبازون وأصحاب الفنادق وهم لا يشترون العقارات احتفاظا بحرية استعمال أموالهم وكان ذلك من دواعي قوتهم وذكر الدكتور لي ( الموريسك ص 204 )

وذكر الدكتور لي ( الموريسك ص 7 ) أن العرب من أهم عوامل النشاط والرخاء في اسبانيا وأن براعتهم كانت قدوة في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون وخلالهم

قدوة في النشاط والمثابرة والزهد والعفة والرفق وكانوا على الجملة من أفضل العناصر التي يمكن أن تضمها دولة متمدنة )

وكان التسول معدوما . في الاندلس وقليل جدا في المغرب حيث لم يستفحل الا في عهد الحماية من جراء سياسة نزع ملكية الاراضي الفلاحية التي جرفت بكثير من البدو الى أرباض الحواضر حيث سكنوا في اخصاص موبوءة أو مدن القصدير وقد ذكر المقرئ في النفح ( ج I ص 104 ) = ( وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدول التي تكسل عن الكد وتخرج الوجوه للطلب في الاسواق فمستقبحة عندهم الى النهاية واذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه فضلا عن أن يتصدقوا عليه فلا تجد في الاندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر ) وبخروج العرب من الاندلس اندرست فنون اشبيلية وطيطة والمرية وعفت صناعاتها ( لين بول - الموريسك في اسبانيا )

وإذا راجعنا لوائح الصناعات التي كانت مزدهرة في العدوتين نجدها متنوعة جدا فمن الانسجة المختلفة الى أنواع من الصناعات الجلدية والحشبية والمعدنية الى الحزف المرصع الى غير ذلك .

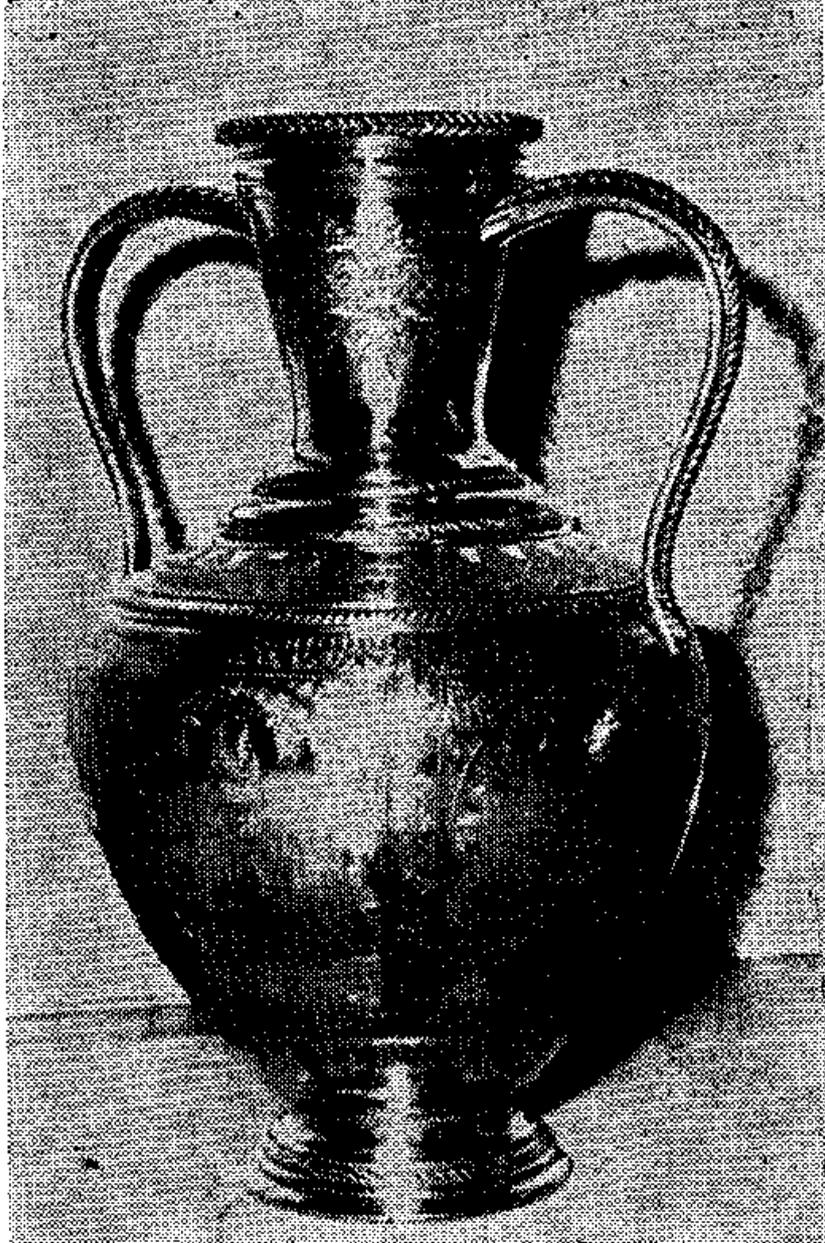
وقد أشار ابن مرزوق ( القرن الثامن ) الى بعض أنواع الصناعات المغربية المتصلة بالبناء وحده فذكر النجارين والجباسين والزليجين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين - والصفارين ( المسند الصحيح ص 39 ) (I) والاطر الاندلسي ظاهر في كل ذلك .

فهذا الزليجي الفاسي الذي هو نوع من الترصيع الحزفي أصله من الاندلس فقد كان يصنع بالاندلس نوع من المفضض ( المعروف في المشرق بالفسيفساء ونوع يبسط به قاعات ديارهم يعرف بالزليجي يشبه المفضض ( المقرئ في النفح نقلا عن ابن سعيد ج I ص 187 )

وقد جلب الحكم الاموي الفسيفساء عام 354 هـ من ملك الروم اقتداء بالوليد في بناء مسجد دمشق فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء 320 قنطارا

(I) لما أراد الموحدون اتخاذ أصونة للمصحف العثماني « حشروا الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصباغين والنظاميين والحلائين والنقاشين والمرصفين والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين . فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة وأشكال مبتدعة وضموا من غرائب الحركات وخفي امداد الاسباب للمسببات ( النفح ج I ص 291 ) .

هدية فرتب جملة من الممالك لتعلم الصناعة فأبدعوا وأربوا على الصانع الذي صدر  
راجعا عند الاستغناء عنه ( المغرب لابن عذاري ج 2 ص ( 354 ) .  
والترصيع هو التكييف ( كلمة تركية ) وهناك مرادفات حسب البلاد والعصور  
منها التلبيس والترسيب والتنزيل وأصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق .  
وفن الترصيع ربما ادخل الى المغرب من سوريا مباشرة أو عن طريق الاندلس



وعاء من صنع مغربي ( يكون اما من النحاس واما من الخزف )

رما زال الاوربيون يسمون هذا الفن الى الآن بالفن الدمشقي في جميع أنواع الاواني والحلى وفولاذ دمشق مشهور في أوروبا حيث كان يستورد بكثرة ومن الشرق دخلت أساليب الصناعة العربية الى ايطاليا أول الامر وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الاقطار الاوربية حتى اضطر أحد ملوك فرنسا الى اتخاذ قرار لتحديد ذلك السيل ( اعراف المسلمين وعاداتهم ص 247 )

وغالب فنون التطريز والترقيم المغربي من أصل أندلسي وبعضها من أصل أوربي أو شرقي . فقد نشرت هسبريس ( ج 2I عام 1935 ) بحثا حول التطريز المغربي فلاحظت أن النماذج التي اقتبس منها مختلف الفنانين بأزمور اسبانية ابطالية يرجع تاريخها للقرن السادس عشر والحواشي المطرزة في أزمور هي نموذج للنهضة الاوربية بالمغرب .

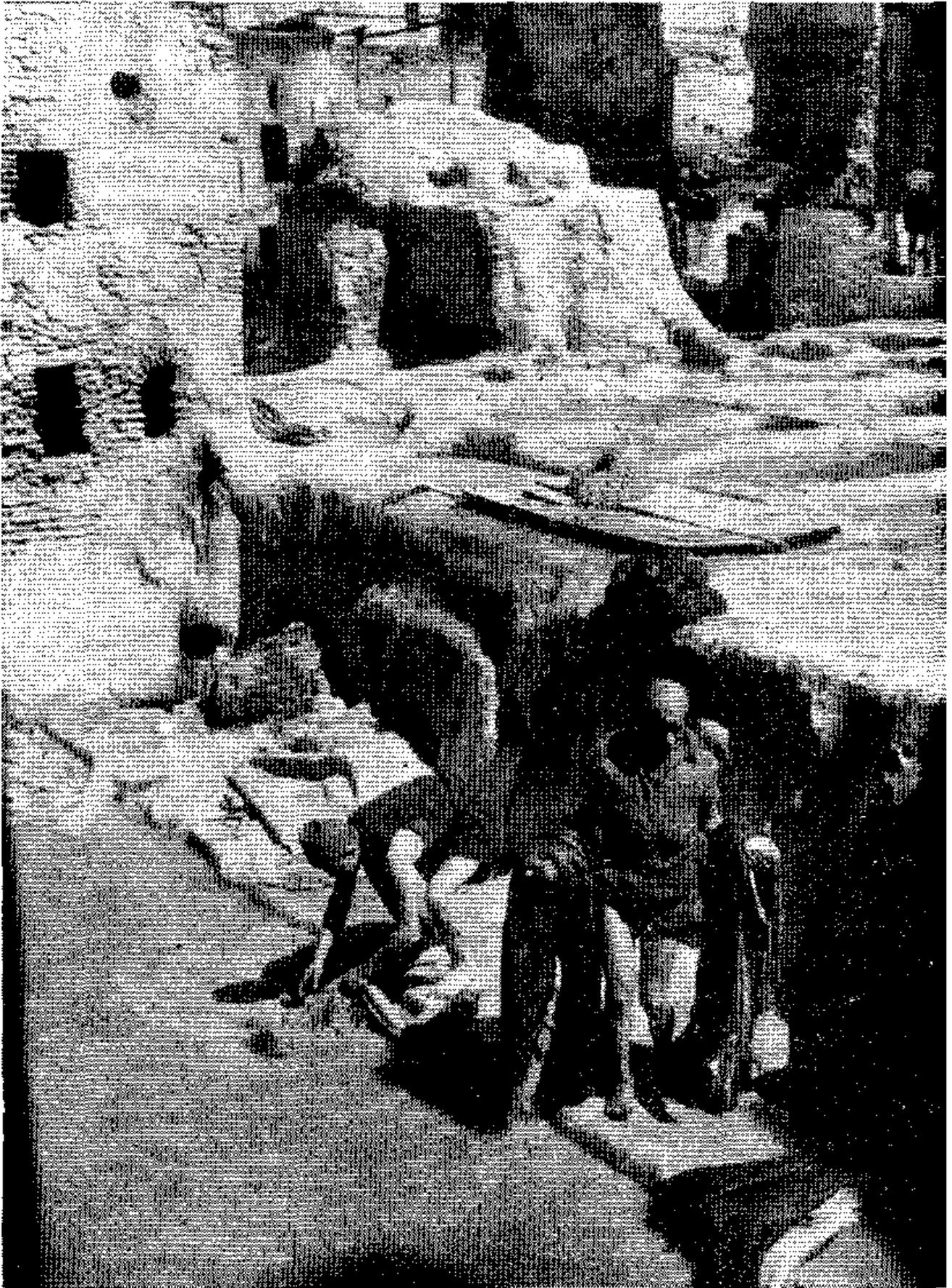
أما تطريز فاس فانه يستمد من الفن السوري واذا قارنا بين النماذج الاوربية والنماذج المغربية وجدنا أن الفرق غير محسوس اللهم الا في تناسق الرسوم وهناك نماذج سلوية من أصل فارسي أو شامي وكلها معروفة في أوروبا وقد نقل الاندلسيون بعض الاساليب الاسبانية ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الانسجة الاوربية .

وهناك تطريز بفاس علجي الاصل ادخلته الى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات - اللواتي تسرى بهن أهل فاس وغيرهم ثم التطريز التطواني الذي هو من أصل بلقاني . (I)

وفي القرن العاشر الهجري حسب الحسن الوزان - كان عدد كبير من العملة يشتغلون في دور السكة بفاس ومراكش ( الذهب والفضة ) وتيويت بسوس ( الحديد ) والمدينة بهسكورة ( الذهب ) وأزمور ( الذهب والفضة ) وسلا (الذهب والفضة ) ونول وسبتة وسجلماسة ( الذهب والفضة ) ولكن وجود العملة لم يمنع السكان من الاستمرار في المبادلات الطبيعية بدون نقد لا سيما في الجنوب ( هسكورة وتادلا والحوز ) حيث تستعمل الفضة في حل النساء . ( ص 100 )

وتقوى أهمية المراكز الصناعية أو تضعف تبعاً لمواردها الاقتصادية ووفرة الصناع بها فقد قام الاستاذ ما سينيون في سنتي 1923 و 1924 بتحقيق حول حناطي

(I) ولم تحل روح النقش التي أظهرها بعض ملوك الموحدين دون ازدهار فن الزخرفة فقد أمر المنصور بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق التصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكتفاه منه بالساذج القليل وأمر باخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقص ( البيان المغرب لابن عذارى ج 4 ص 81 )



الدباغة على الطراز القديم

المحترفين والتجار بالمغرب في فاس ومراكش والرباط وسلا ومكناس والدار البيضاء وتارودانت فتأكد لديه بعد التمهيد ان رجال الحرف في كل من هذه المدن يبلغ عددهم نصف مجموع سكان كل مدينة ( الحناطى الاسلامية - باريس عام 1925 ص 38 ) (I)

وقد ذكر كايي في تاريخ الرباط ( ص 193 الى 196 ) ان الرباط وسلا كان بهما اثنا عشر معملا لصنع الزرابى انتجت 840 زريبة خلال سنة 1855 يوزع نصفها على مختلف انحاء المغرب ويصدر الثلث الى الخارج والباقي يستهلك في الرباط وسلا وكان بالمدينتين أيضا خمسة معامل لصنع العايك طول الواحد ستة أمتار في متر ونصف ويباع بستين فرنكا وأقلها ثمنا تباع بخمس قرنكات وقد صنع منها في المدينتين 63200 عام 1855 زد على ذلك 400 جلابة ( جلاب ) من الصوف طولها خمسة أمتار وثمانها عشرة فرنكات للوحدة .

وصنع في نفس السنة 460800 سببية من الفطن المغزول المصنوع في جبل طارق قيمتها 345600 فرنك .

وكان بالمدينتين أربعون دارا للدباغة وعشر دور للصبغة تعالج كل سنة أزيد من 110.000 كيلو من الصوف و 1500 كيلو من الحرير و 150 معملا للبلغة و 30 من دور فخارة تصنع 600.000 آنية في العام قيمتها 180.000 فرنك

وكان بالمدينتين أيضا عام 1855 دور ثلاث لضرب سكة البليون تتوفر على اثنتي عشرة مصهرة ويعمل فيها 36 ما بين معلمين وعملة وكانت تذوب في كل يوم تسعة قنابير من المواد الاولية ( النحاس والرصاص والقصدير وكبريت النحاس ) قيمتها نحو 1184 فرنكا .

وكانت منتجات مصانع الرباط وسلا تقدر بخمسة ملايين من الفرنكات مما يجعلهما المركز الصناعى الثالث في المغرب بعد فاس ومراكش .

وإذا اردت أن تأخذ صورة عن مختلف الحرف في أصغر مدينة بالمغرب فلتنظر الى أزموور مثلا حيث ورد في احصاءات يرجع عهدا الى حوالى 1930 (ناحية دكالة - من المغرب وقبائله ج II ص 40 ' أن الجبازة كان عددهم 83 ( 68 امرأة ) والفرارنية 60 ( 48 متعلما و 12 معلما ) والقهواجية 8 والاسكافين 45 والبقالة 180

(I) حكى دوكامبو الذى ألف كتابه « مملكة تنهار » عام 1886 أن عائلة متركة من والدين وستة أطفال كانت تصرف - حسب تحقيق قام به فى الصويرة - تسعة تشر فرنكا فى الشهر طعاما ومشروبا وسكنى وملبوسا وأثاثا ونفقات غير اعتيادية وكان دخل هذه العائلة أربعة وعشرين فرنكا تقتصد كل شهر خمسة فرنكات (ص 86) .

وبائعوا الاحذية 20 والكفايتية 2 والبياضة أو الدجايجية 18 والجيسارة 10 والبناعون  
الاخصائيون في الطابية ( المعروفة قبل سنة 1294 كما في البيان المغرب لابن عذارى ج  
I ص 193 ) وكلهم من ناحية درعة واليزازة أو بائعوا الثياب 46 والبغازة أو بائعوا  
السبك بالجملة 52 والشراحة (مجفوق السمك) 3 والعبارة 1 والنجارة 40 والبناعون 40 والحدادون  
32 والقزادرية وكلهم يهود 8 والمختصون في تبييض النحاس 4 والفخارون 19  
والدباغون II والنساجون 23 والحياطون المسلمون 25 والصاغة اليهود 21 والحجامون  
28 والطحانون 28 والسفاجون 4 والسقاة ( الكرابة ) 35 والصيادون 800  
والدلالون II والقنويون 2.

ومن جملة الصناعات المنتشرة بالمغرب النقايشية والمهارزية (تذويب النحاس)  
والجوالقية (صناع الفنارات ) والقزادرية (I) .

وقد أفردت الوثائق المغربية بحثا في هذا الموضوع ( سنة 1907 ) .

وكانت هنالك مراكز صناعية أخرى لعبت دورا مهما في تاريخ المغرب فهذه  
سبنة مثلا أصبحت في عهد الموحدين في طليعة مراكز انتاج الورق الذي لم يكن  
يضاهيه جودة سوى ورق شاطبة وكان العرب يصنعون الكاغد من القطن فقد عثر  
كازيري في الاسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه الى عام 1009  
وهو سابق للمخطوطات الموجودة في نفس مكاتب أوروبا وشاهد بأن العرب كانوا أول  
من استعاض عن الورق بالكاغد والعرب أول من صنع الكاغد من الخرق البالية  
( حضارة العرب ص 519 - 520 ) .

وذكر المسعودي في المروج أن جعفر البرمكي هو أول من اتخذ الكاغد أيام  
الرشيد فتداوله الناس من بعده .

ويقول كريمر بأنه في عصر المعتصم العباسي أسس عمال مصريون في سامرا  
قرب بغداد مصنعا للورق ( أعراف المسلمين وعوائدهم بقلم كوتى ص 249 ) وذكر  
كوتى أن مصانع شاطبة كانت تمد أوروبا الغربية بالورق بينما كانت أوروبا الشرقية  
تتزود من الشرق ومعلوم أن الطباعة - بالحروف المتحركة والتي هي من اختراع  
الصينيين قد دخلت بفضل المغول الى مصر ومنها الى أوروبا ( ص 275 ) وقد ألف

(I) ترويجا لمنتجات الصانع المغربي ودعاية لها شارك المغرب عام 1285هـ في المعرض  
الذي أقيم ببافيس في عهد نابليون الثالث ومثل المغرب ج محمد بن العربي القباج الفاسي  
المعروف بالفرنسوي لمعرفته اللغة الفرنسية وقد بعث معه السلطان نماذج من الانتاج  
المغربي مثل السروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف المنمقة والزليج الفاسي  
والعلمين الذين يباشرون ترصيعه ( الاستقصا ج 4 ص 232 ) .

ابو بكر المقدسى كتابا فى الخواص وآلة الطبع غريب فى معناه مما يدل على أسبقية العرب . والعرب هم الذين نقلوا دودة القز الى أسبانيا ومنها الى المغرب ( أعراف المسلمين وعاداتهم ص 247 ) .

ووردت فى مخطوط عربى طريقة لصنع الثلج ولم تكتشف أوربا ذلك الا فى النصف الاول للقرن السادس عشر ( كوتى أعراف ص 244 ) كما اخترع عباس بن فرناس الاندلسى صناعة الزجاج من الحجارة وهو الذى حاول الطيران وكتب فى الموسيقى ومثل فى بيته السماء بنجومها - وغيومها تمثيلا يقرب من الحقيقة .

وقد بلغت الصناعة الدقيقة والميكانيك ( علم الحيل ) عند العرب مبلغا كبيرا يتجلى فيما كتبه أبو العز بن اسماعيل ابن الرزاز الجزرى فى كتابه ( الحيل الجامع بين العلم والعمل ) حيث ذكر أنه صنع زورقا عليه صور بعض ندماء السلطان وصور جماعة من مطربات مجلسه واتخذ من خشب فيه دكة عليها صور الملك جالسا وعن يمينه حاجبه قائما وعن شماله حاملا السلاح وبين يديه غلام فى يده قدح كأنه يسقى ودون ذلك جماعة من الندماء جلوس عن اليمين وعن الشمال وبين أيديهم أوانى الشراب وقبالة الملك دكة عليها زامرة .. ووراء الدكة الجوارى الملاح وعلى حافة الزورق ملاحان بأيديهما محذقان فيوضع الزورق على سطح الماء فى بركة كبيرة فلا يكاد يسكن بل يتحرك وكلما تحرك فان الملاحين يتحركون لانهم على محاور والمجاذيف تحركهم بحركتها فى الماء فاذا مضى نصف ساعة تزم الزامرة وتلعب الجوارى بالملاهى بأصوات يسمعون من حضر ثم يسكتن ثم ( يعدن الزمر واللعب ) .

وفى كتاب الحيل هذا لابن الرزاز صور كثيرة للساعات المائية والدواليب والآلات المنوعة وهو موجود بالخزانة النيمورية بمصر وكذلك كتاب ( علم الساعات والعمل بها ) لرضوان بن محمد الحراسانى به صور ساعات مائية وما يتخذ فيها من التماثيل والدمى .

وفى أخبار مصر لابن ميسر أن الافضل أمير الجيوش وزير الفاطميين كان له مجلس شراب فيه صور ثمانى جوار متقابلات عليهن أفخر الحلى فاذا دخل ووطئ العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له فاذا جلس فى صدر المجلس استوين قائمات .

وجاء فى تاريخ سديو أن أبا الوفاء البوزجاني اخترع بندول الساعة الدقاقة وقال سمى العالم الأمريكى أن كمال الدين بن يونس لا حظ قانون الرقاص وسبق غاليلي الى معرفة شىء منه

ووصف المقرئ فى النفخ ساعة كانت عند أبى حمو سلطان تلمسان ( لها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانة فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسايها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية وفى يدها رقعة مشتملة

على نظم فتضعها بين يدي السلطان ويسراها على فمها مؤدية بالمبايعة حق الخدمة )

وقد صنع أبو عنان المريني على يد موقته على التلمسانى عام 758 منجانة بطيسان وطسوس من نحاس مقابلة لباب مدرسته الجديدة بسوق القصر وجعل شعار كل ساعة أن تسقط صنجة في طاس وتفتح طاق ( زهرة الآس ص 40 )

وقضية مقصورة جامع مراكش المصنوعة أيام الموحدين معروفة وقد كانت تتحرك جدرانها ومنبرها بمجرد ما تمس رجل الخليفة الازرار الموضوع في المدخل الخاص عند دخوله للمقصورة (I) على ان عظمة الابتكار الاسلامى فى الميدان الصناعى تتجلى - كما قال ماكس ما يرهوف - فى علم البصريات التى هى الآن أساس صناعة النظارات والمرايا فى العالم وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى علم البصريات وجاء فى تراث الاسلام أن علم البصريات وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم واعترف العالم الفرنسى فياردو بأن كبلر أخذ معلوماته فى الضؤ وانكساره فى الجو من كتب ابن الهيثم وقال سارطون أنه أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين والمشهورين فى العالم

ولم يكن العرب ينفون من الصناعة والتجارة .

فقد قال ابن القاسم ان مالكا كانت له أربعمائة دينار يتجر له بها فمنا كان قوام عيشه ومصلحته ( مدارك عياض - مخطوط )

وكان أبو حنيفة يتجر بالكوفة فى دار ما زالت موجودة وهى دار ابن حريث ( أبو حنيفة بطل الحرية والاسلام ) والامام الخفاف أحمد بن عمر بن مهير كان

(I) كانت هذه المقصورة مدارة بحيل هندسية بحيث تنصب اذا استقر المنصور ووزراؤه بمصلاه منها وتختفى اذا انفصلوا عنها وقد اتخذها المنصور بجامعة المتصل بقصره فى مراكش وفيها يقول أبو بكر ابن مجير شاعر المغرب فى وقته ( له ديوان يشتمل على أكثر من 9400 بيت ) .

طورا تكون بمن حوته محيطه	فكانها سور من الاسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوة	فكانها سر من الاسرار
وكانها علمت مقادير السورى	فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامام يزورها	فى قومه قامت الى الزوار
يبو فتبدو ثم تغفى بعد	كتكون الهالات للاقمار

وذكر المقرئ فى النسخ أنه زار مراكش عام 1010 فلاحظ أن حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها ( النسخ ج 2 ص 704 )

يؤلف للمهتدى بالله كتاب الحراج ويصنف كتبه القيمة في الفقه في حين يعيش من خصف النعال .

والجصاص شيخ زمانه ينتسب الى العمل في الجص ( نفس المصدر ) والشيخ ابراهيم المتبولي كان يبيع الحمص المسلوق بالقاهرة ( طبقات الشعرائي ج 2 ص 67 )  
ومحمد بن أحمد بن طاهر الانصاري الاشبيلي النحوي المعروف بالحديب كان بفاس . ينتحل صناعة الحياطة وقد رأس أهل عصره وأخذ عنه أبوذر الحثمني وابن خروف النحويان ( جذوة الاقتباس ص 168 )

وأبوتمام كان سقاء في جامع عمرو بن العاص ( ابن خلكان ج I ص 172 )  
وكان الجاحظ يبيع الحيز والسماك ( معجم أدباء ج ص 369 )

وكان أبو العتاهية يبيع الجرار والفخار ويتوافد على حانوته المتأدبون فيأخذ هؤلاء ما يكسر من الحزف ويكتبون ما ينشدهم أبو العتاهية من أشعار ( الاغانى ج 3 ص 129 ) وكان أبو بكر الصبغى المتوفى عام 344 هـ يعمل الصبغ بنفسه ويبيعه في حانوته وكان من أعيان فقهاء - الشافعية وكان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين وكان عبد الله بن يعقوب يجلس على باب هذا الحانوت يقرأ للناس (طبقات الشافعية ج 2 ص 128)

ومحمد الغساني التلمساني كان تاجرا في قيسارية آسفى يدير حانوته بعد الفراغ من مجلس تدريس الموطا والسير والنحو والآداب واللغة توفي عام 663هـ ( الذيل والتكملة )

ويذكرون أن العلامة الكبير الشيخ محمد بن عبد الله معن كان ( يتمعش بمعمل دود القر ) بفاس ( نشر المثاني ج I ص 197 )

ومن هذه الفذلكة يتجلى لنا الدور الخطير الذي لعبته الصناعة التقليدية بالمغرب والمركز الاجتماعي المهم الذي شغلته في مختلف العصور طبقة التجار والمحترفين الذين ترجع كثير من عوامل الازمة الاقتصادية الضاربة أطنابها الآن الى تضعفهم من جراء غزو الصناعة الحديثة بدواليبها وآلاتها العصرية لميدان العمل المغربي ولا شك أن من الادوية الناجمة في انعاش هذه الطبقة هي تطور اساليبها وحصولها على الوسائل المادية الكفيلة بذلك .

ولا ريب ان مشاريع وزارة الاقتصاد ومنها احداث لجنة عليا للتنسيق وبنك

للقرض ستكون عاملا قويا في هذا الانعاش .

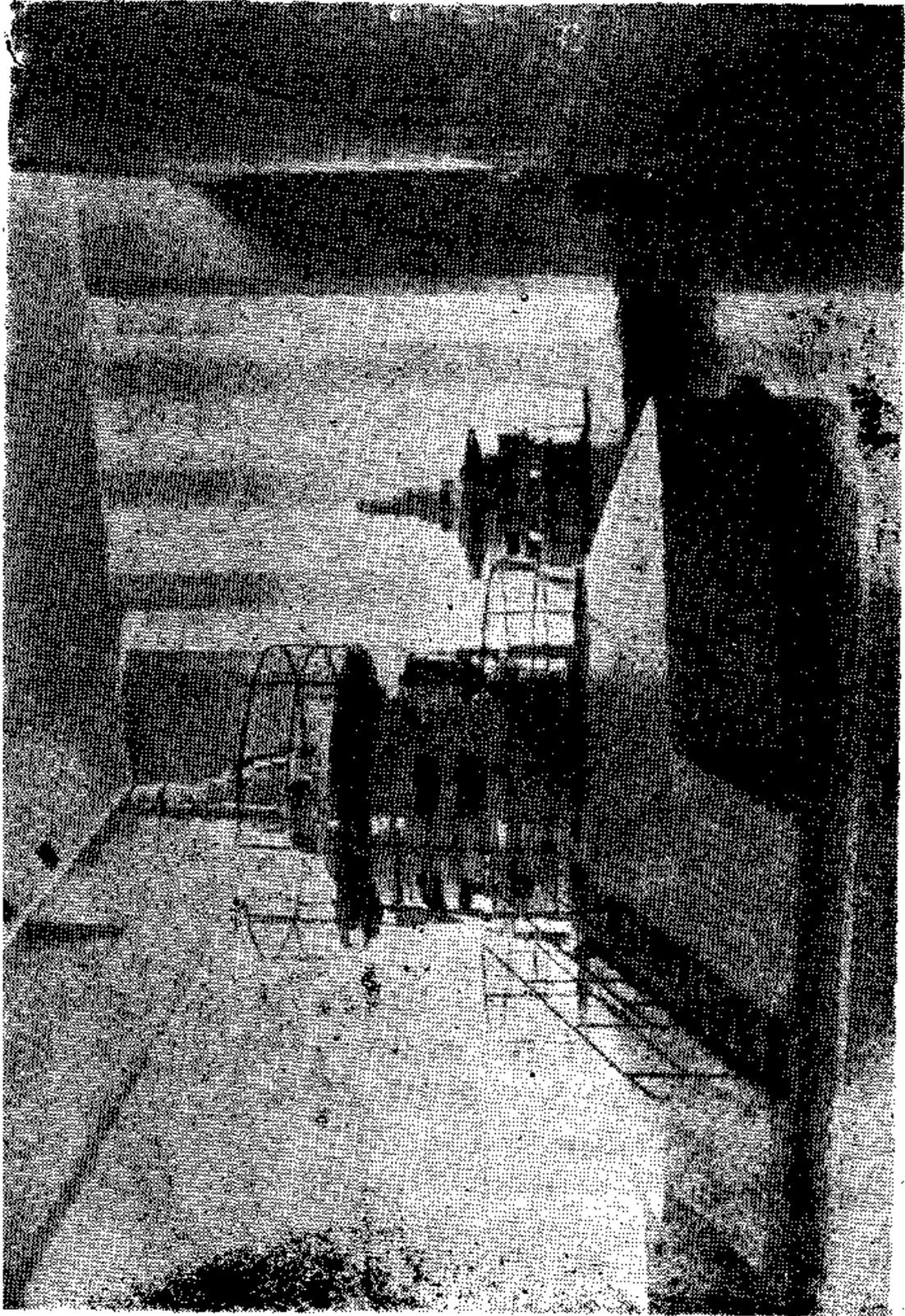


Fig. 1. 1911. 1911. 1911.

## الفصل الثامن :

### العملة المغربية

علم النميات هو علم تعرف به أنواع النقود التي ضربت في أزمنة مختلفة وبلاد شتى وفي أيام ملوك وقيصرة متنوعين والنيات جمع نعى وهى كما فى القاموس صنجة الميزان أو الفلوس والدرهم التي فيها رصاص أو نحاس والواحدة بهاء والجمع نامى وهذه الكلمة متقاربة مع لفظة لها نفس المدلول فى اللغتين اليونانية واللاتينية ومنهما أخذ الفرنسيون كلمة :

ولم يكتب فى هذا الموضوع من علماء الاسلام ومؤرخيه الا أفراد قلائل منهم البلاذرى فى آخر مصنفه ( فتوح البلدان ) والمقرئى صاحب الخطط فى ( رسالة فى النقود الاسلامية ) عنى بنشرها الشدياق ثم أعيد نشرها عام 1933 ( وهى تتم ما كتبه البلاذرى ) وهناك كتاب ثالث هو الجزء العشرون من ( وهى الخطط التوفيقية الجديدة ) لعلى باشا مبارك أفرده للنقود العربية فتم بذلك موضوع تلك النقود من صدر الاسلام الى عام 1282 ( الموافق عام 1865 ) والكتاب الرابع موسوم ( بتحرير الدرهم والمثقال والرطل والمكيال ) تأليف مصطفى الذهبى الشافعى وهناك أيضا أقوال متفرقة فى كتب مؤرخين آخرين كابن خلدون والقلقشندى .

أما فى اللغات الاجنبية فاهم ما كتب فى هذا الباب رسالة النقود لم . دوساسى وقبل ان نرسم لوحة عن تاريخ النقود المغربية نرى من الواجب التمهيد لها بلمحة فى تاريخ النقود العربية وكذلك الاجنبية فنقول :

كان الناس يتعاملون أول الامر بالمقايضة قبل ان يعرفوا النقود ويقال بأن أول أمة تعاملت بالنقود هى اللوذية فى متم القرن السابع قبل الميلاد وقد ذكر انستاس الكرملى فى كتابه النقود العربية أن بلاد فارس تعلمت ضرب النقود من لوذية على اثر تغلبها عليها عام 546 قبل الميلاد وكانت النقود فى أول أمرها تضرب مربعة ثم جعلوها مستديرة وقد علم اللوذيون العالم النقود المقطوعة بحجم معين ووزن معين وطبعها بطابع الملك كغالة لقيمتها وهكذا شاع استعمال النقود المطبوعة فى جزر المتوسط واليونان واوربا وعند ما نمت ثروة اثينة واتسع اطار تجارتها كانت نقودها تحتل مركزا مهما فى الاسواق لا سيما فى حوض المتوسط ولم يستعمل الرومان

النقود الا حوالى عام 350 قبل الميلاد حيث ضربوا نقودا فضية على غرار الدراخمة أى الدرهم اليونانى وصغروها الى سدس حجمها الاصلى بعد استيلائهم على جنوب اليونان عام 268 قبل الميلاد على أن القرطاجنيين وهم من الجنس العربى لرجوع عنصرهم الى الكنعانيين سكان فينيقيا ( أى ساحل لبنان ) هم أسبق الامم الى استنباط النقود الجلدية التى كانوا يستعملونها استعمالنا اليوم للاوراق المالية على أن أول أمة استعملت الاوراق البنكية فى شبه شكلها الحالى هى أمة الصين كما أورد ذلك ابن بطوطة فى رحلته حيث أشار الى وجود ( أوراق ) بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان واذا تمزقت حملها الى دار السكة ليأخذ عوضها ) .

وكان الانباط فى جنوب شرقى الاردن قد اقتبسوا من اليونان ضرب النقود وأول من فعل ذلك منهم الحارث الثالث وكانت للدولة التدمرية نقود فى أحد وجهيها صورة وفى الوجه الآخر أحرف أما العرب قبل الاسلام فانهم كانوا يتعاملون بنقود كسرى أى الدراهم والدنانير وكان الدرهم فضيا والدينار ذهبيا على الاغلب ووزنه مثقال وكان الى جانب هذين النقيدين نقود نحاسية وروى عن الزمخشري أن الدينار قطعة من فضة وهو خلاف المشهور كما يدل على ذلك قول الشاعر الذى شبه الدينار بالشمس والدرهم بالقمر :

ويظلم وجه الارض فى أعين الورى بلا شمس دينار ولا بدر درهم

ويرى المقرئى أن النقود النحاسية لم تكن معروفة فى القديم وهو خطأ لوجودها عند الرومان واليونان .

وكانت قيمة الدينار تختلف من 10 دراهم الى 13 أو 15 درهما حسب خلوصها أو زيفها ويقدر الدينار اليوم بنصف ليرة فرنسية ذهبيا أو نحو العشرة فرنكات ذهبية وجاء فى الخطط التوفيقية أعلى مبارك باشا ( ج 4 ص 46 ) أن قيمة الدينار هى خمسة عشر فرنكا ذهبيا .

وكانت الدراهم الفارسية ثلاثة أنواع منها البغلية أما الدنانير فقد عرف العرب منها صنفين الهرقلى أو الرومى والكسروى أى الفارسى وقد ظل العرب بعد الاسلام يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية فلما ضربوا نقودهم أبقوها على شكلها الرومى والفارسى بكتابتها ونقوشها حتى أن سيدنا خالد ابن الوليد يوم ضرب باسمه نقودا فى طبرستان عام 15 أو 16 هـ جعلها على رسم الدنانير الرومية ويقول المؤرخ الالماني ميلر بأن خالدا أبقى على أحد وجهى هذه الدنانير صورة الصليب والتاج والصولجان ونقش على الوجه الآخر اسمه اليونانى وقد لاحظ الاستاذ أنستاس الكرملى أن هذا يتناقض ما قاله المقرئى من أن سيدنا عمر بن الخطاب هو أول من ضرب النقود فى الاسلام ويريد الاستاذ الكرملى أن يستنتج من رواية ملر أن ضرب

النقود باسمه كان من أهم الأسباب التي دعت عمر بن الخطاب الى تنحيته عن قيادة الجيش وأن عزله كان بعد فتح الشام والقدس لا في واقعة اليرموك والذي حمل الاستاذ على هذا الاستنتاج كون خالد لم يكتثر للعزل بل ظل على ولائه لعمرو حارب في جملة الجند وهذا استصغار لايمان خالد الذي كان يرى أن طاعة الخليفة ولو مخطئا هي طاعة للرسول .

أما عبد الله بن الزبير فهو أول من ضرب النقود مستديرة في مكة وضرب الامراء والولاة في عهد الخلفاء نقودا في طبرستان عام 28 هـ ولكن أول من ضرب النقود الرسمية عربية مستقلة في الاسلام وأوجب التعامل بها كما يقول الاستاذ الكرملى وأبطال استعمال النقود الرومانية والفارسية هو عبد الملك بن مروان خامس أمراء بني أمية بإشارة سيدي محمد الباقر بن علي بن الحسين ولكن ابن الاثير ينسب فضل هذا الرأي لخالد بن يزيد بن معاوية وقد عرفت دنانير عبد الملك بالدنانير الدمشقية وأمر عامه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بضرب الدراهم ثم صار أمراء العراق يضربون النقود لبني أمية وفي معلمة الاسلام أن الحجاج اتخذ دارا للضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال .. ثم أذن للتجار وغيرهم أن تضرب لهم الاوراق واستغلها من فضول ما كان يوخذ من فضول الاجرة للصناع والطباعين .

وحيثما غلب هارون الرشيد نقفور ملك الروم البيزنطيين فرض عليه غرامة مالية ينقش على أحد وجهي نقودها ( هارون الرشيد ) وعلى الآخر ( الامين والمأمون ) وقد استعمل العباسيون الحجارة الكريمة كما تستعمل الحوالات المالية اليوم .

وكان الدرهم البغلي يساوي ثمانية دوانق والمغربي ثلاثة فأمر سيدنا عمر بن الخطاب بالنظر الى الاغلب في التعامل فحددت قيمة وسطى وهي ستة دوانق .

والبغلية نسبة الى بغل وهو اسم يهودى ضرب تلك الدراهم كما أورد ذلك صاحب البرهان القاطع وصاحب مجمع البحرين .

والدرهم في اليونانية دراخمي كما أن الدينار كلمة رومية هي :

والقيراط معرب كذلك عن اليونانية وكان وزنه يختلف بحسب البلاد فبمكة ربع سدس دينار ( أي 24 / 1 ) وبالعراق نصف عشرة ( أي 20 / 1 ) كما في القاموس ومن أغرب ما ورد في مجلة هسبريس ( ج 23 سنة 1936 ) أن صلاح الدين الايوبي ضرب عددا من النقود الذهبية والفضية ليسحب من الرواج العملة الزاجاجية التي كان الخلفاء الفاطميون قد اضطروا الى استعمالها .

ويجد الباحث نتفا مبعثرة من تاريخ النقود المغربية في جملة المصنفات التاريخية

والرحلات والتراجم الا أن هنالك كتباً أفاضت في هذا الباب كرحلة الحسن بن محمد  
أوزان المعروف بليون الافريقي وإذا أضفنا الى ذلك ما أورده ابن بطوطة في رحلته  
( ج 4 ص 336 ) والمقریزی وابن فضل الله والزياني ثم ما جاء في مصادر أخرى  
ككتاب النميات والنقود الاسلامية للاستاذ سوفيير Souvire ( 87 - 1882 )  
والعملة الاسلامية لم . ساسي ( 1797 ) وشينبي وبو نفيل في دائرة المعارف النقدية  
( ص 175 ) وكذلك النماذج المحفوظة في المتاحف ودور الآثار يمكننا أن نرسم  
صورة عن النقود المغربية وتطورها وشكليتها وقيمتها خلال العصور وقد ذكر الاستاذ  
ماسينيون في التعليق الذي حرره حول رحلة ليون الافريقي بعنوان ( المغرب في  
السنوات الاولى للقرن السادس عشر ) ( ص 100 ) لائحة لدور السكة في المغرب  
أيام الحسن الوزان أي اواخر القرن العاشر مشيراً الى وجودها بفاس ( لسك  
الذهب والفضة ) ومراكش ( كذلك ) وتزيت ( الفضة ) وتبوت بسوس ( الحديد  
وهسكورة ( الذهب ) وأزمور ( الذهب ) والفضة وسلا ( الذهب والفضة  
كذلك ) ونون وسبتة ( ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين )  
وسجلداسة ( الذهب والفضة ما بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين ) .

غير ان العملة لم تكن اذ ذك منتشرة في كل مكان لان المقايضة كان لا يزال  
العمل جارياً بها وقد ذكر الحسن بن محمد الوزان ان الفضة لم تكن تستعمل في  
عصره بسوس ومصودة وهسكورة وتادلا والحوز الا حايا النساء لا للتعامل .

وكان هنالك نوعان من النقود نقود حقيقية مسكوكة كالدينار الذهبي والدرهم  
الفضي والفلوس المصنوع من معدن البليون ونقود معظمها غير موجود وانما تتخذ  
اساساً ومقياساً لغيرها من النقود الموجودة مثال ذلك المثقال العربي الذي كان  
يساوي في القرن الثاني ما بين 10 و 15 اوقية وما بين 40 و 60 موزونة ورغم أزمة  
الوفرة أو القلة انتهى طرأت على التتابع بخصوص الذهب والفضة بعد القرون  
الوسطى فان قيمة الفضة الشرعية ذلت على ما كانت عليه في الصدر الاول أي سبع  
قيمة الذهب في حين ان المعدنين كادت قيمتها تتعادل بل تجاوزت قيمة الفضة  
قيمة الذهب على اثر اكتشاف مادن الابريز ونضوب معين معادن الفضة القديمة وقد  
ضرب المغرب في المدة المتراوحة بين القرن الخامس والقرن العاشر الهجري قطعاً من  
الدينار واخرى تساوي نصف دينار وسدسه وربعه وثمانه ونصف سدسه كما سك  
قطعاً من الدراهم ثم قطعاً أخرى تعادل قيمتها نصف درهم وثلثه وربعه وسدسه ونصف .

وكان البليون يساوي 6 فلوس والاقية ريالاً اسبانياً - ولنستعرض الآن  
أوزان الدنانير والدراهم والفلوس من صدر الاسلام الى أيام السلطان مولاي الحسن :  
فقد عشر في قصر فرعون ( مدينة ويلي ) على نقود ضربت أيام الادارسة  
وقبلهم وهي :

دراهم سكت في واسط ( مقر الحجاج بين البصرة والكوفة ) عام 95 هجرية  
ودراهم ضربت في مدينة السلام عام 157 هـ وأخرى على نوعين ضربت عام 171 هـ  
ودراهم سكت باسم خلف بن الماضى عام 175 هـ وأخرى في وليلى نفسها باسم المولى  
ادريس الثانى عام 181 هـ وأخرى باسم المولى ادريس عام 183 هـ وأخرى باسم قيس  
بن يوسف عام نيف ومائة وثمانين هجرية نقش عليها ( لا اله الا الله وحده لا شريك  
له ) ( راجع مجلة هسبريس الجزء 23 عام 1936 ) .

والدينار كان وزنه يتراوح في الصدر الاول بين 4 غرامات و 729 و 4 غرامات  
و 25 وأيام المرابطين نقص وزنه حتى صار يتراوح بين 3,960 ثم ارتفع وزنه أيام  
الموحدين الذين حاولوا الرجوع الى السلفية وتقليد الاوائل حتى قسى وزن النقود  
الى 4,729 غراما كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب وظل الدينار الموحدى المصمودى  
مربعا طوال قرن كامل ثم تغير شكله الى التدوير ايام المرينيين دون أن ينقص من  
وزنه ولكن في أيام الدولة العلوية حتى بلغ ثلاث غرامات ومن ذلك الحين أى منذ عهد  
المولى اسماعيل ابطال التعامل بالدينار الذهبى اللهم الا ذلك النوع الصغير التابع الذى  
ضرب بالرباط عام 1787 والذى كانت قيمته تعادل 40 موزونة وهكذا انتهى عهد  
المغرب بالثاقيل الذهبية التى استعوض عنها بمثاقيل قياسية من فضة فكان الدينار  
الفضى يزن 28 غراما ما بين سنتى 1760 و 1787 ويساوى ريبالا عام 1849 ويزن  
26 غراما عام 1899 وصار وزن المثقال القياسى يتناقص حتى بلغ 1,78 غراما ما بين  
سنتى 1903 و 1905 ميلادية .

وكان الدينار يساوى :

- 1 - فى الصدر الاول عشرة دراهم وستمائة فلس
- 2 - وأيام المرابطين والموحدين مثقالا وعشرة دراهم
- 3 - وأيام المرينيين والسعديين والعلويين 15 درهما

ثم صار الريال يساوى عام 1949 13 درهما ونصف درهم و 1,296 فلسا وفى  
عام 1899 صار الريال يعادل عشرين قرشا و 3,120 من الفلوس وفى عام 1788 ضربت  
فى اسبانيا سلسلة من النقود المغربية وكانت هنالك نقود تسمى بالزلاغى تنجزا  
الى نصف فلس وثلاثة وربعه وخمسه .

وكان الدوبل ( وهو تكبير دبلون عند الاسبان ) يستعمل فى فاس وهسكورة  
وتونس وتساوى قيمته عند كل من المرينيين والحفصيين وبنى الاحمر فى غرناطة  
ما يعادل 13,50 فرنكا .

أما العملة التى كانت أساس التعامل بالمغرب فى العهد الحسنى فما بعد فقد  
وصفها الدكتور فسجيربر فى كتابه ( الدار البيضاء والشمالية عام 1900 ) حيث ذكر

ان أساس نظام العملة كان هو المثقال المستعمل مثلا في المعاملات العقارية والبيع  
بالمزايدة والذي كانت قيمته تعادل 30 سنتيما فرنسيا بالصرف الوقتي اذ ذاك وكان  
المثقال يصرف هكذا :

المثقال = 10 اوقيات

الاوقية = 4 موزونات

الموزونة = 6 فلوس

الفلس = 6 قواريط

غير ان هذه النقود كانت مجرد عملة تقديرية للحساب اما العملة الرائجة فهي :

**النقود الذهبية :** اللويز 20 فرنكا فرنسا

**النقود الفضية :**

الريال = الدورو ( الاسباني ) = 4 فرنكات

نصف ريال = 2 بسيطات = 2 فرنكات ( او فرنك او 60 قرش )

ربع ريال = فرنك واحد

1/10 ريال = 50 س اسباني = 40 س فرنسي

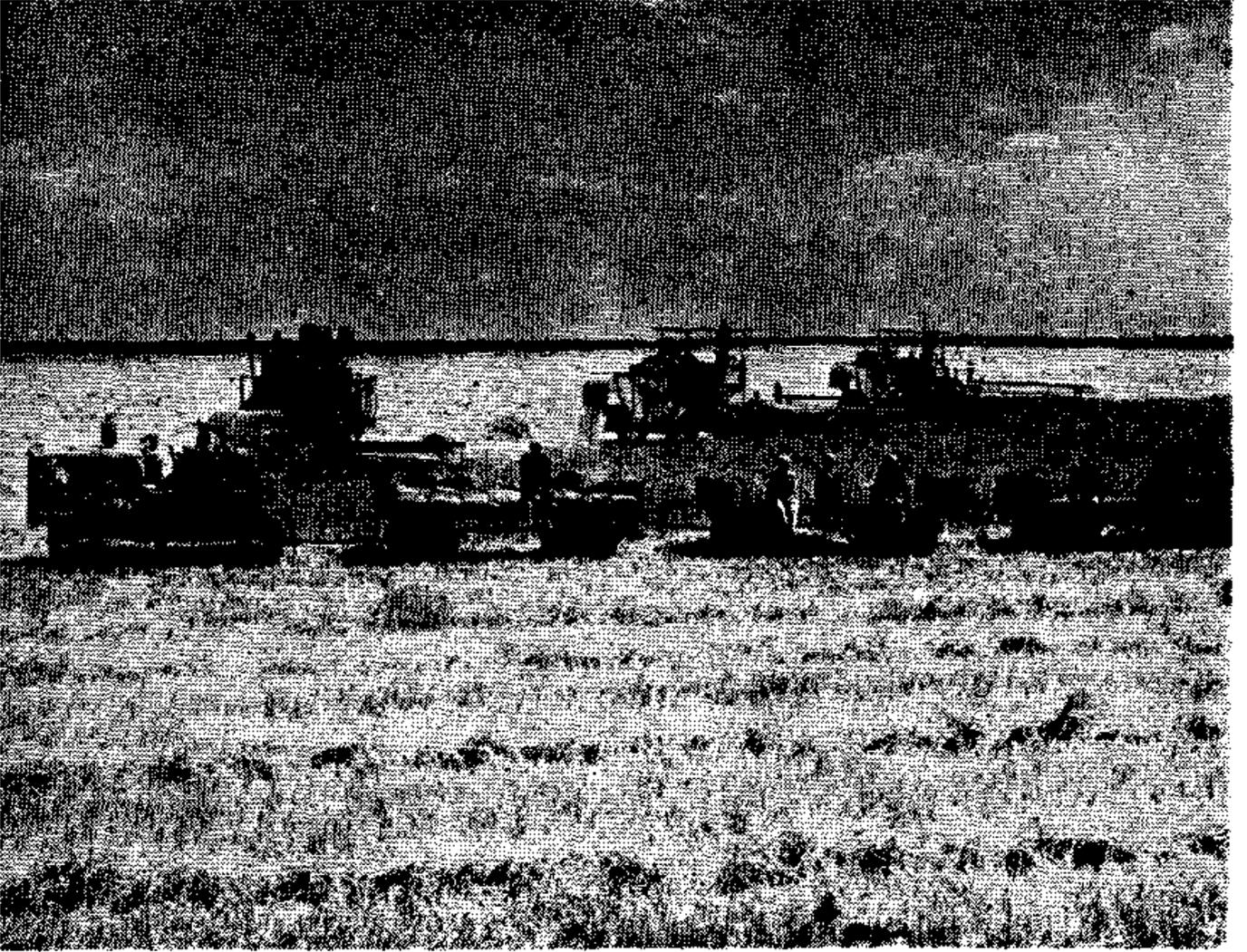
1/20 ريال = 25 س اسباني = 20 س فرنسي

**عملة النحاس :**

نقود اسبانية تساوي 10 او 5 س

موزونة واحدة تساوي اقل من سنتم

فلس يساوي عشر موزونة



الجرارات الحراثية

## الفصل التاسع :

### تطور النظام الجبائي

يذكر المؤرخون ان العرب عند ما فتحوا المغرب فرضوا على من لم يدخل الى الاسلام كلا من الجزية والحراج وكانت الجزية عبارة عن مقابل لما يؤديه المسلمون للدولة من الزكوات أما الحراج فانه كناية عن ثمن الارض التي تتنازل الدولة عنها لنفلاح بعد ما تملكها بحق الفتح .

ولكن بعد ما اعتنق البرابرة الاسلام لم يعودوا يؤدون الا الاعشار والزكوات. وكانت الدولة الى جانب ذلك تتقاضى الخمس من استغلال المعادن التي توجد مناجمها في أرض مملكة للرعايا وتعتبرها كركاز فتطبق عليها الحديث الشريف ( في الركاز الخمس ) وفي اوائل المائة الثانية انتشر في المغرب مذهب الحوارج الذين كانوا يبثون آراء الشعوبية فحدثت قلاقل وعمت القوضى فصار العمال المحليون يشقون كاهل الحواضر بضرائب مختلفة يفرضونها على المواد الضرورية وقد أشار الشريف الادريسي الى جبايات من هذا النوع كانت تطبق في اغمات .

ولكن لم يكد المرابطون يقبضون على زمام الحكم حتى الغوا جميع هذه الضرائب واقتصروا على الاعشار والزكوات فكانت ميزانيتهم تتوازن بهذه الموارد مضافة الى الجزية المفروضة على اليهود والمسيحيين والخمس المستخلص من غنائم الجهاد في بلاد الاندلس .

وعندما استولى عبد المومن على العرش واحتل افريقيا الشمالية بكاملها مسح الارض بالفراسخ والاميال ثم اسقط من التكسير الثلث في الجبال والغياض والانهار والطرق وفرض على الباقي الحراج والزم كل قبيلة بقسطها من الزرع بدعوى ان البلاد فتحت عنوة ثم فرض على الشعب علاوة على الزكوات والاعشار زكاة الفطر ومكوسا على المبيعات وزاد ماسينيون وضريبة المباني وواجبات الابواب كما زاد دوزي الرتبة التي كانت تتقاضاها من الناس المراكز المسلحة في مقابل تأمين الطرق وفي أيام يوسف بن يعقوب المريني وأبي سعيد عثمان بن يعقوب وضع نظام جبائي جديد اقتصر فيه على الزكوات والاعشار الدينية فيما يخص الرعايا المسلمين والجزية فيما يخص الذميين وورد في الوثائق المغربية ان الجزية كانت فردية ( ديناران وثمان

دينار للفرد ) ولكن صارت جماعية في القرن العاشر حيث ذكر الحسن بن محمد الوزان ان يهود فاس كانوا يؤدون للدولة اربعمائة دوكا في الشهر والدوكا تساوي بصرف القرن الماضي نحو السبعة فرنكات ونييف .

وكانت هنالك فيما رواه ماسينيون في كتابه المغرب في اوائل القرن السادس عشر . (ص179) ضرائب أخرى في شكل ذعائر وجبايات على القنادق وأخرى على المساجين ( دوكا وربع ) علاوة على الهدايا التي تقدمها الرعية للسلطان وكان أهل البادية يؤدون زيادة على ذلك الحراج موزعا على ما يسمى ( بالزويجة ) وهي عبارة عن مساحة من الارض يمكن لزوج من البقر ان يفلحها النائبة التي كانت تدفع وبعبارة أخرى نحو الثمانية هكتارات وكانت الى جانب ذلك في مدة يوم واحد للمخزن حسب ( الكانون ) أو على عدد رؤوس أفراد العائلة .

وكانت المدن تؤدي ضرائب غير مباشرة تعرف بالمستفاد كما نص على ذلك الحسن بن محمد الوزان ولكن ابا سعيد المريني استعاض عن جميعها بالمكس والقبالة ففيما يخص الاولى كانت تبلغ بفاس مثلا 2 في المائة وتؤخذ عن كل شيء عدا الابقار والدجاج والخشب ( الجمال والغنم تعفى كذلك في بعض الاحيان ) وكانت النسبة تصل احيانا الى 25 في المائة وكان المخزن يتقاضى عن كل مقطوعة من الثوب المستورد من أوروبا والمبيع في القيسارية قدرا معلوما من المال .

وكانت هنالك ضرائب أخرى كالضريبة المفروضة على بائعي اللحوم المشوية في الشوارع أو على الحضر وكالتى كانت تؤدي عن المكاييل في أسواق الحبوب وهي أشبه بالضريبة التي تؤدي اليوم في رحبة الزرع .

ولكن هذه الانظمة الجبائية تغيرت منذ القرن العاشر الهجري حيث نظمت جباية النائبة في شكل جديد حلله الاستاذ كور وقد تم ذلك عام 1552 م حسب رواية ما سينيون أي أيام محمد المهدي السعدي وفي 1580 أي أيام المنصور أعيد نظام الحراج ثم تطورت الواجبات الجمركية فأصبحت تؤدي عن السكر والفضة والذهب واسترد بيت المال أموالا طائلة من احتكار بيع الكبريت والفولاذ والتبغ الى أن استعيض عن الاعشار الدينية عام 1901 بضريبة الترتيب .

وقد رسم الحسن بن محمد الوزان لوحة مهمة عن مداخيل الواجبات الجمركية ( والنكاس ) يتبين منها أن جميع نواحي المغرب كانت خاضعة للنظام الجبائي المخزني فقد بلغ المدخول السنوي في أحد الاعوام 300 000 - دوكة أي ما يعادل 4350000 فرنك بتقويم القرن العاشر أو ستة وعشرين مليون فرنك حسب قيمة أول القرن الحالي والذي يؤكد لنا الارقام التي أدلى بها ليون الافريقي ويدلنا على أن المداخيل الجبائية بالمغرب لم تتغير تقريبا خلال ثلاثة القرون التالية ما أورده الاستاذ هوسط عن السنوات المتراوحة بين 1760 و 1768 حيث ذكر ان واجبات الجزية على الذميين

بلغت مائة الف مارك والجمارك 320000 بياستر والاعشار والزكوات 270000 بياستر والنكس ( من قبالات وذعائر واحتكارات ) 857000 والهدايا 250000 فيكون المجموع 865000 مارك و 932000 بياستر .

وكانت قيمة البياستر الاسبانية تعادل خمسة فرنكات و 43 سنتيما والمارك قيمته قيمة الفرنك بحيث يقدر المجموع بستة ملايين مارك وبما ان المارك في ذلك العصر كان يساوي 15/1 دوكا مغربية ذهبية حسب هوسط فان ستة الملايين المذكورة تعادل 400000 دوكا أى ما يقارب الرقم الذى ادلى به الحسن الوزان . وقد ورد من جهة أخرى فى مذكرات القنصل الفرنسى شينى عن سنة 1767 بالضبط ان البواخر الفرنسية وحدها صدرت فى المغرب بضائع قيمتها 647000 ليبرة وجلبت اليه نحو نصف هذه القيمة وفى عام 1773 بلغت قيمة الواردات 400000 والصادرات 760000 ومعلوم من جهة أخرى أن معاهدة 28 مايو 1767 تحدد التعريف الجمركية بعشر قيمة البضاعة الواردة وقد نص عقد الجزيرة فيما بعد على ذلك على أن التعاريف الجمركية المفروضة على الصادرات تتجاوز العشر اذ أنها تتغير تبعا لنوع البضاعة وحاجيات الدولة ويكفى أن تعلم أن المدخول الجمركى بلغ عام 1707 241000 ليبرة اديت عن بضائع لا تتجاوز قيمتها 647000 ليبرة .

وقد تضخمت الموارد الجمركية تضخما مطردا أصبحت معه تسد مسدا مهما فى موارد الدولة التى قلت حاجتها الى ضرائب أخرى ويكفى أن 223 باخرة اجنبية دخلت عام 1851 الى المراسى المغربية مثقلة بالقطنيات والحراير والفولاذ والحديد والسكر والشاي والقهوة والمواد المصنوعة وفى الصويرة وحدها بلغت قيمة البضائع 5583158 فرنكا على ان احتكار الدولة المغربية لحقوق الاصدار واليراد كان يدر عليها مبالغ أخرى ومن جملة المواد التى كان المخزن يحتكر اصدارها أو توريدها لفائدة بيت المال أيام المولى عبد الرحمن قشرة الخفاف وجلود الحيوان والكبريت والاصباغ والقهوة والسكر والشاي والخشب والنحاس والزنك والرصاص وملح البارود والكيف ومناطق الصوف وكان هنالك نوع من الاحتكار يمكن ان يسمى احتكار جلب أو تصدير بضاعة من البضاعات فتنازلت عنه الى تاجر أو طائفة من التجار فى مقابل عوض مالى مهم وقد ورد فى عدة مصادر ان الموارد الجمركية المغربية بلغت سنويا أيام المولى الحسن نحو العشرة ملايين فرنك .

تلك صورة عن نظام المغرب الجبائى فى مختلف العصور عن الاساليب التى عمد ملوك المغرب الى استخدامها فى عهد السعديين والعلويين فى استغلال الميزان التجارى الدولى لتضخيم الموارد الجمركية والاستغناء بها عن ائقال كاهل الشعب بمختلف الجبايات .

القسم الثالث:

المظهر الحضاري العسكري والديبلوماسية

## الفصل العاشر:

### الجيش المغربي

ان الجيش المغربي الذى هو مظهر من مظاهر حضارتنا وقوام جوهرى لسيادتنا قد اعتنوته أطوار شتى فقد كان فى أوائل العصر الاسلامى جيشا غير نظامى يتكون فى معظمه من المتطوعين أو من اولئك الذين تعبتهم السلطة القائمة لغاية موقنة فكنت تجد فى نفس الجيش أشتاتا من مختلف القبائل كما وقع فى عهد موسى بن نصير الذى جاز الى الاندلس بالمصامدة وفلول من القبائل البربرية الاخرى المنتمية الى افريقية والمغرب ولم يكن العنصر العربى يمثل فى هذه المجموعة سوى طائفة معدودة حيث لم يرافق مثلا الجيش البربرى الى الاندلس تحت امره طارق بن زياد سوى سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشعائر الاسلام كما يقول ابن عذارى المراكشى فى البيان المغرب ( ص 37 ) ويظهر أن الجيش الافريقى كان مجهزا اذ ذاك بما يتطلبه العصر من عدة اذا اعتبرنا الانتصارات التى أحرزها رغم قلة عدده على جيوش العلوج المشهورة بحسن نظامها وقوة جهازها ولعل مثلا واحدا يعطينا نظرة عن الجهاز العسكرى العربى اذ ذاك وهو أن موسى بن نصير انصرف سنة 95م من الاندلس الى افريقية مجيزا الغنائم التى أفاء الله عليه بها فى المراكب الى طنجة ناقلها اياها على العجلات الى الشرق ( البيان ص 38 )

ولعل الجيوش الافريقية البربرية ظلت مبعثرة تتجاذبها القبائل من البتر والبرانس التى ما فتئت العصبية القبلية تمزقها الى ان جاء الاسلام فوحد هذه الصفوف والتأمت تحت ظله مختلف القبائل منذ عام 85 وهو التاريخ الذى تم فيه اسلام أهل المغرب الاقصى تحت ولاية طارق ابن زياد فحولت المساجد التى كان المشركون قد بنوها الى القبلة ونصبت المنابر وطلق البربر يدخلون فى دين الله أفواجا حيث تقبلوا الدين الجديد كما يقول ميشوبليير فى محاضراته بصدر رحب لانه خلصهم من الارهاق الجبائى وجعلهم سواسية لا فرق بين عربى وعجمى الا أنه ما كاد يمر نحو ربع القرن حتى ولى عمر بن عبد الله المرادى عاملا على طنجة من قبل عبيد الله بن الحبحاب فاساء السيرة واعترم تخميس البربر زاعما أنهم فىء للمسلمين فاستعرت أول ثورة بربرية حيث شق ميسرة المدغرى عصا الطاعة عام 122م ووجدت دعوة الحوارج ميدانا خصب لنشر دعايتها على أساس ما يقتضيه الاسلام من مساواة .

وبقيت الحالة متارجحة بين الاستقرار والفوضى الى أن ظهر الادارسة في المغرب فتجمعت حولهم القبائل التي لم يسبق لها ان تكتلت فيما قبل فكانت ترى زواغة وزناتة وسدراتة وغبياة ونفزة ومكناسة وغمارة ومطعرة ( أو مدغرة ) التي ساندت ميسرة المذكور ومغيلة وبنى يفرن ومغراوة تسير جميعا في اركان الفاتح العربي مختربة تامسنا الى الاطلس الكبير الى السوس الاقصى فكان للمولى ادريس حينذاك جيش من المتطوعين البربر ثم مالبت هذا الجيش ان قوى وترعرع وانتظم حيث انضم اليه في عهد المولى ادريس الثاني خمسمائة فارس من افريقية والاندلس ينتمون للقيسة والازد والحزج ( زهرة الآس ص 13 )

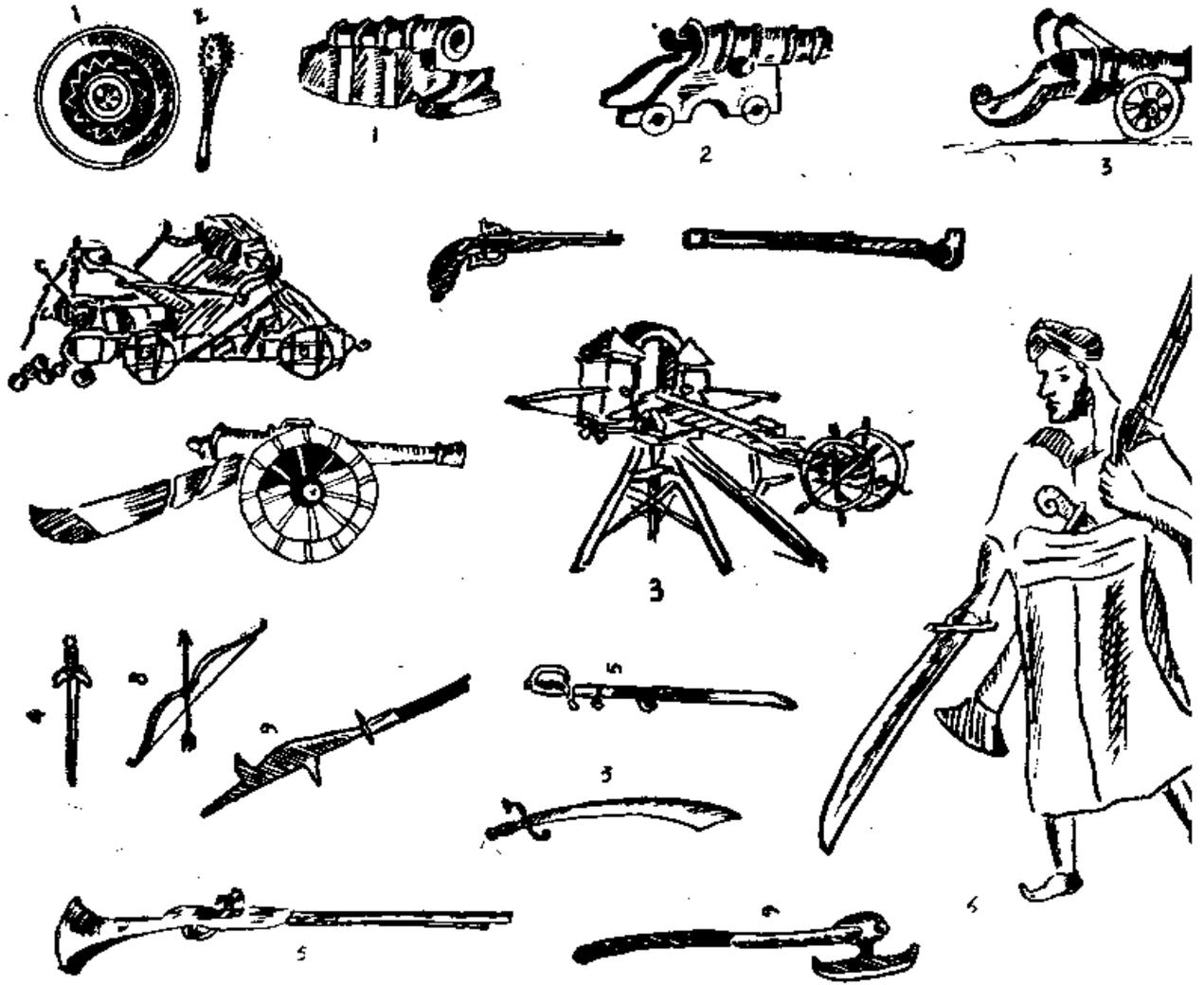
وفي عهد المرابطين ظهر جيش نظامي جديد (I) درب على الحياة العسكرية وانقطع لها غير ان هذا العدد من الجنود النظاميين لم يكن شيئا يذكر بجانب أجناد القبائل التي يستنفرها الامير المجاهد عند الاقتضاء وقد تمكن الامير يوسف بن تاشفين من توحيد الاندلس واسترجاع حصونها وقلاعها من يد الجلالقة وغير الجلالقة ووحد المغرب بفضل استبسال جيوشه المظفرة من الصحراء الى الجزائر الى قشتالة ببلاد الاندلس حيث ترك حامية قوامها ثلاثة آلاف من البربر وقد توفر لامير المسلمين المظفر جيش عتيد استعرضه رسميا في حصن لرقنة في جوازه الاول بالاندلس (المعجب ص 77) كما استعرض حفيده تاشفين الجيش المرابطي في تلمسان قاعدة المغرب الاوسط عام 538 هـ (2) ( الحلل الموشية 108 ) ولم يكن لهذه الجنود على ما يلوح ديوان خاص لتسجيلها (3) كما كان يجرى اذ ذاك في نفس العصر وقبله في كثير من الاقطار الاسلامية الاخرى والظاهر ان المرابطين كانوا كالفاطميين اول أمرهم يحشدون بغير ديوان انما كان يكتب الى رؤساء القبائل فيحشدون من يليهم وامتدت رقعة المغرب في عهد عبد المومن بن علي الى طرابلس فكان له جيش عتيد اقتلع جدور الاستعمار النورمندي من افريقية بفضل اسطوله الذي كان كما يقول اندري جوليان في تاريخ افريقية الشمالية ( أول اسطول في البحر المتوسط (4)

(1) - في عام 454 ادرج يوسف في جيشه الاغزاز والرماة « فكمل له في جيشه أزيد من مائة الف فارس من صنهاجة وجزولة والمصامدة والاغزاز ( الانيس ج 2 ص 41 )

(2) قصة استعراض الجيش من طرف عبد المومن بمحضر الوزير ابن عطية ( المعجب ص 122 )

(3) - تحدث صاحب المعجب عن كتابة ديوان الجيش في عهد الموحدين (ص162)

(4) - ذكر ابن خلدون في تاريخه ان يعقوب المنصور امد صلاح الدين الايوبي بمائة وثمانين اسطولا لمقاتلة النصاري بفلسبطين ثم قال : «وهذا دليل على اختصاص ملوك المغرب يومئذبالاساطيل الجهادية وعدم غناية الدول بمصر والشام لهذا العهد»



### الآلات الحربية القديمة

ودخلت العناصر الهلالية العربية في الجيش الموحدى الذى اتسم بطابع جديد ضاعف قوته وكتل صفوفه ولم يكن الجيش الموحدى ولا الجيش المرابطى قبله يخلو ان من مرتزقة مسيحيين بحيث يبرهن وجودهم عما كان يذكى أمراء المغرب من روح التسامح ولكن أجل ما كان يلفت النظر فى هذا الجيش الفتى علاوة على نظامه واستماتته الاشعاع الروحى بين صفوفه فقد ذكر المؤرخ ميلية فى كتابه عن الموحدى ان فى كل فيلق من الفيالق الموحدية كانت الصلوات تقام بانتظام ولم يكن ذلك من قبيل التزمتم البارد ولكنه كان يتم عن ادراك صادق لعنوية هذه الشعوب التى تكن تصل بينها سوى رابطة الدين فكانت كل قبيلة وكل فخذة تحت امرة قادتها الطبيعيين اللهم الا فيلق العبيد (ص124) وقد تحدث المؤرخ المذكور عن حملة الموحدى فى افريقية فذكر ان عبد المؤمن زحف على رأس مائة الف مجاهد وأنه لم يسبق لحملة

ان سارت تحت قيادة اجدى واحسن فكنت ترى هذه الجماهير تخترق حقول الزرع دون ان تدوس سنبليها وفي كل مرحلة كان الجيش يصطف بكامله وراء امام واحد لاقامة الصلاة (ص 80) وقد نظم في مراكش أيام عبد المؤمن تدريب ثلاثة آلاف من الطلبة بالاضافة الى العلوم التقليدية على ركوب الخيل والسباحة والرمايه والتجديف في البحيرة المؤسسة لهذه الغاية وقد استنفر عبد المؤمن لغزو الاندلس بعد ذلك الف جندي من كل قبيلة استقر معظمهم بالعدوة واندرج كذلك في جيش الموحدين فريق من الاغزاز والاكراد الذين نزحوا من الشرق الى المغرب فتقبلهم الموحدون لمزاياهم العسكرية ولبت هذا الجيش في نمو مطرد حتى بلغت مقاتلته في عهد الناصر ستمائة الف ما بين رجالة وفرسان ينتمون للمغرب وافريقية أجازوا كلهم لانجاد الاندلس ( الذخيرة السنية ص 41 ) ( I )

وقد شمل الجند المريني الذي اتسم بنفس القوة وتوفر على نفس العتاد بل أشد - قبائل زناتة وقبائل العرب المستقرة في المغرب فكان من العرب الفرسان ومن الاندلسيين حملة الاقواس ومن المرتزقة النبالون والرماة .

ومعلوم ان العرب هم الذين اخترعوا العتاد الناري كما أكد ذلك جوستاف لوبون في حضارة العرب (ص 616) وأوضح ابن خلدون أن أبا يوسف المريني حاصر سجلماسة عام 872 بالمجانيق وأكد ذلك صاحب ( الذخيرة السنية ص 158) ويفهم من هذا ان المرينيين كانوا أول من استعمل الاسلحة النارية الا أن صاحب الحلل المشوية تحدث عن استعمال ابن عباد للسهم والمطارد والرعادات وغير ذلك من الآلات في الجواز الثاني لابن تاشفين الى الاندلس أي عام 481 هـ ( ص 55 )

على أن هناك كثيرا من العادات العسكرية يظن أنها حديثة العهد في حين كان العمل جاريا بها منذ عدة قرون من ذلك - وان كان مخالفا لما يجري به العمل الآن ولكن اصل الفكرة موجود - ما رواه صاحب الذخيرة السنية نفسه من أن رايات العدو نشرت في عهد أبي يوسف المريني منكسة في أعلى منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بعد انتصار الجيش المغربي في الاندلس ( ص 174 )

وفي عهد السعديين اقتبس المغرب من تركيا نظامها العسكري في كثير من مظاهره واسند المنصور الذهبي الى ضباط أتراك تدريب العلوج والاندلسيين والعبيد الذين ضخم بهم جيشه بعد احتلال السودان

وقد أكد سوردون ان قبائل الجيش ( الكيش ) اسندت قيادتها الى ضباط

---

( I ) - كان في جيش عبد المؤمن 380 000 فارس و 100 000 راجل كلها رابطت

في سلا ( الانيس المطرب ج 2 ص 167 )

يسمون باشوات وهو لقب تركي دخل لأول مرة في العهد السعدي الى المغرب (فرنسا في افريقيا الشمالية ص 154 )

وقد بلغ عدد الجنود المرابطين في فاس وحدها في عهد المنصور 22000 من بينهم 4000 مخازنية كلهم بكسناوي الملف والحريير والكتان ( تاريخ الدولة السعدية ص 73 ) وكان عدد الفرسان في مراکش اثني عشر الفا ( نفس المصدر 74 ) والسلطان مولاي عبد الله السعدي هو الذي ادخل الاندلسيين في الجيش المغربي (ص 38) وقد كان لولده المسلوخ ثلاثون الفا من بينهم 1800 اندلسي ( ص 48 ) في حين أن مولاي عبد المالك هو أول من أدّج اهل فاس في سلك الجيش مع ما كان له من رجال الاندلس وشرذمة قليلة من الترك ( ص 53 )

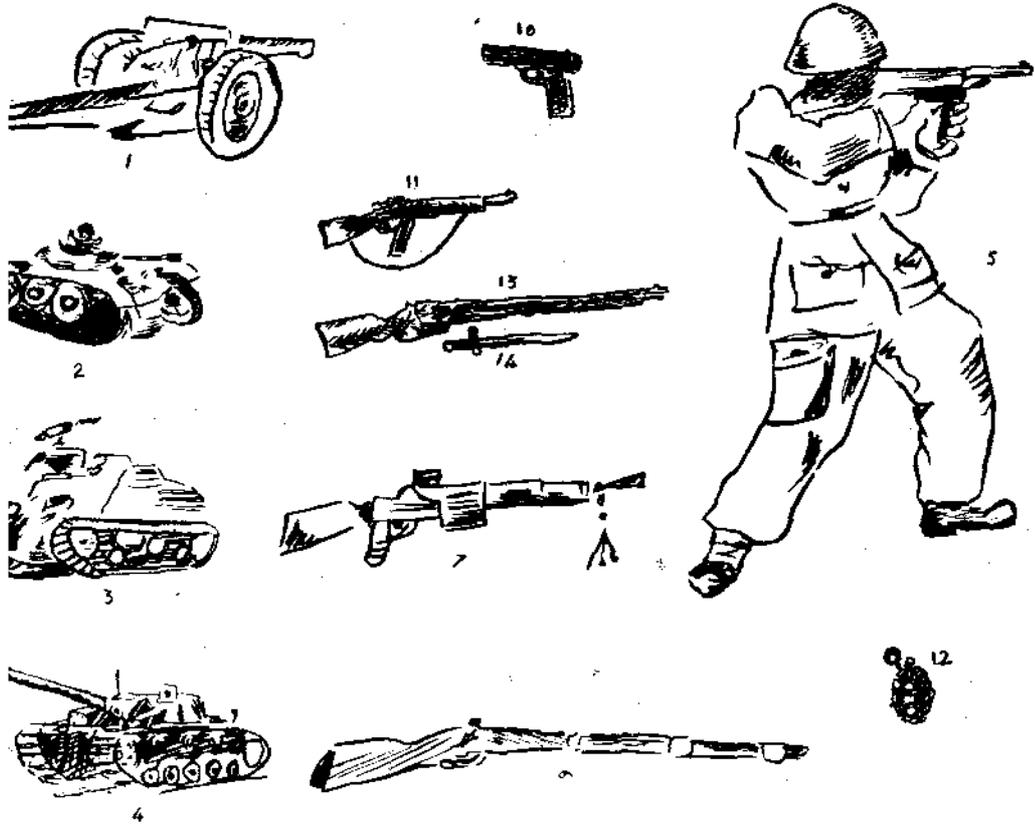
ومما يدل على أهمية الجيش السعدي (I) أن احدي محلات مولاي محمد كانت تحتوى على أكثر من 150 نفضا أهدي منها مولاي عبد المالك الى الاتراك عشرين وما ينيف على مائة من الجرائحين والحجامين وأدوات للمجاريح وأردية الكتان للرباطات والجبائر وكان يوتى بالمجاريح من ساحة القتال الى المحلة فتشدد جراحهم ويصنع لهم الدواء في الحين ( ص 51 ) وكان الملك قرر التجنيد العام في ظروف خاصة حيث استنفر السلطان مثلا في فاس وأحوازاها لمعركة وادى المخازن كل بالغ من عرب وبربر ووجه قوادا لمختلف القبائل والمدر للسهر على التعبئة العامة ( ص 60 ) وبفضل هذا الجيش العتيدي تمكن المغرب من الانتصار على البرتغال في وقعة وادى المخازن التي لم ترفع البرتغال الرأس بعدها طوال عدة عقود من السنين كما استطاع المغرب أيضا تأمين البلاد حيث ألزم شيوخ المداشر ورؤساء القبائل ضمانا ما يضيع في مقاطعاتهم «فانتشرت العافية وظهرت الهدنة من باب تازة الى أقصى سوس» (ص 66)

وفي العهد العلوي بدأ نظام جديد انقسمت بموجبه البلاد الى ثلاث مقاطعات عسكرية تافيلالت ومراكش وفاس وأصبحت هذه المقاطعة الاخيرة بعد قليل مركز قيادة الجيش المغربي بعد مكناس في العهد الاسماعيلى

(I) - ذكر جان نيكو في مذكراته التي كتبها عام 1561 ميلادية ان الامير محمد السعدي فتح الجديدة بجيش يبلغ مشاته 12,700 وفرسانه 37,000 علاوة على 13,500 جندي «آخرين من الطلائع التي تعبد الطرق و 24 مدفعا منها مدفعا يسمى الميمونة الذي كان يبيت الرعب في النفوس وكان المغاربة والبرتغاليون يستخدمون الالغام والآلات المضادة لها -

وفي عام 1610 قرر المجلس الهولندي السماح السلطان مولاي زيدان بصنع ثلاث او أربع بواخر حربية في الاوراش الهولندية ونقلها الى المغرب (وثائق دو كاستر ج I ص 519)

وكان عشرات الآلاف من المتطوعين يتواردون من شرق البلاد وجنوبها للانخراط في الجيش الاسماعيلي العتيق الذي تكونت نواته الاولى من شراكة ( المغرب الشرقى ) والاولدية من الجنوب واحواز الرباط والشراردة وكذلك العبيد الذين كانوا يربطون في مكناس وتنضم الى هذه العناصر القارة فلول من سوس وعبدية والمنابهة والرحامنة واولاد احمر



### المعدات العسكرية الحديثة

وكان الى جانب هؤلاء الجنود المرابطين في القصبات فيالق من المخازنية الذين يقومون بحراسة السلطان أو الباشوات وكان عمال المدن يشرفون على الجنود المرابطة ويراقبون في منطقة نفوذهم ويظهر ان المغرب كان مقسما الى سبع نواح (يزيد العدد وينقص )

ناحية طنجة وفي ضمنها تطوان واصيلا وفجيج ووجدة (2) وناحية العرائش التي يمتد نفود جيوشها الى وزان والقصير (3) وناحية تالطة مع الجديدة وآسفي وأزمور (4) وناحية مراكش مع الصويرة واكادير وتازودانت وسوس والاطلس الكبير وتافيلالت (5) وناحية الرباط مع مهدية والدار البيضاء (6) وناحية مكناس مع زرهون (7) وناحية فاس مع تازة وقصبات الريف .

وهكذا كانت معسكرات الجند منتشرة في جميع انحاء المغرب ففي ناحية فاس مثلا كنت تجد من الخيالة 3000 من شراكه و 4500 من شراردة و 2000 من الاودية وكلهم تابعون لقائد المشور علي أن جميع الرجال الاصحاء المنتمين لمختلف القبائل والحواضر كانوا خاضعين لمبدأ التجنيد العام أما لتكوين جيش الريف واما لتشكيل فيالق تعباً عند الحاجة لمواجهة القلاقل في جهة من الجهات .

وفي مجموع هذه النواحي أقام المولى اسماعيل بالنقط الاستراتيجية معاقل (قصابي) ترابط فيها حاميات يتراوح افرادها بين 400 و 3000 وتمدها القبائل بأنير والمؤن وقد أحصى من هذه الحصون 76 في غربي البلاد وشمالي الاطلس على الخصوص وكان القائد في كل قسبة هو المسؤول عن سلامة منطقة حراسته حيث يجب أن تسود الطمانينة والهدوء وقد عاشت البلاد خلال هذا العصر في بحبوحة من الامن الاستثنائي كما يقول اندري جوليان في «تاريخ افريقيا الشمالية»

ولم يكن هنالك ديوان عام للجيش على ما يلوح اللهم الا فيما يخص العبيد وأهل سوس الذين كانوا يمثلون العنصر النظامي في الجيش المغربي فكانت أسماؤهم وحيثياتهم تقيد في سجلات خاصة وكان المولى اسماعيل أول الامر يستمد جنده من القبائل حتى اطلعه عمر عليليش على دفتر فيه اسماء العبيد الذين كانوا في جيش المنصور السعدي وكانوا منتشرين في مراكش وأحوازها وقبائل الدير فجمع منهم 3000 ، وهذا يدل على أن السعديين كان لهم ديوان عسكري (I)

وما زال البعض من هذه الدفاتر محفوظة في الخزنة الزيدانية ، وتوجد دفاتر أخرى تحتوى على لوائح جنود القبائل وكان في كل قبيلة بجانب السجل الجبائى سجل خاص بالخدمة العسكرية يحرق في نسختين .

وقد أشار الناصري الى ان قضية تجنيد العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الاسماعيلي (ج 4 ص 42) ومن بينهم أهل الديوان المجلوبون من القبائل العديدة على وجه الجندية .

(I) جمع عليليش بأمر من قاضي القضاة محمد العياشي نحو سبعين الفا من العبيد الحقها بمشعر الرملة وألحق بباب السلطان نحو العشرة آلاف من الذكور ومن الإناث عشرين الفا

وكانت الى جانب هذا الجيش عناصر من المخازنية تشكل الحرس الملكي منها 4000 من العبيد (300 فارس) علاوة على العناصر التي تنتمي الى القبائل التي تمتد البلاد بالرقاصة الفرسان والمسخرين والعساكر الموزعة على المدن والمراكز المحقة غير أن هذه القوة لا ترابط الا للدفاع أما الجيش فانه يستمد عناصره في الحقيقة من القبائل التي يتعين على كل منها مبدئيا تجنيد طابور يتركب من 500 رجل يحمل اسم القبيلة ، وكان مجموع هذه الطوابير يحتوى على 25.000 المشاة النظاميين مع طليعة من الفرسان وفرقة من الطبجية أو الرماة .

أما جيش المشاة غير النظامي الذي برهن عن استماتته خلال حرب تطوان (1278 - 1859) فقد بلغ 25.000 وكان الطابور القبلي يبلغ أحيانا 3000 أو يقل عن ذلك تبعا لأهمية القبيلة حيث يجند فرد من كل عائلة وربما تزايد عدد أفراد الطابور في القبائل الكبرى فأصبح عبارة عن آلاي أو فيلق ؛ أما الطابور العادي وهو المحتوى على 500 جندي فانه كان تابعا لقائد الرحي الذي لم يكن شبيها بالكولونيل ، كما يظن البعض ولكن مجرد قائد معسكر ، كما لاحظ ذلك روني لوكليير في بحث كتبه عن الحالة في المغرب سنة 1907 ، وكان لقائد الرحي خليفة يساعده (وهو أشبه بالليوتنانت كولونيل حسب البعض) وكل رحي تنقسم الى سرايا من مائة رجل تحت أمرة قائد المائة الذي يريد بعضهم تشبيهه بالقبطان ، والمائة تتوزع بدورها الى جماعات يتركب كل لفيف منها من 12 شخصا عليهم مقدم (أو نقيب عسكري = سوزوفيسيني) وهذه تنظيمات مبدئية لاندرى - لعدم ورود ذلك فيما نعرف من مصادر - هل كانت تتحقق دائما في كل عصر من عصور تاريخنا الحديث على أن الدولة كانت تستعين عند الحاجة بالمتطوعين البالغين للسد الفراغ الملحوظ أحيانا في صفوف الجيش ، أما في الحواضر فإن الطابور كان يتسم بأهمية خاصة فيناهمز افراده الالف ولا ندرى هل كانت المدن كلها تساهم في حركة التجنيد هذه ام لا: الا أن الصحافي الانجليزي هاريس يحدثنا ان مولاي الحسن عمل على تنمية الجنود المشاة في هذه الطوابير الحضرية بفرض مدد من الجنود على كل مدينة باستثناء مدينة مراكش .

وهناك ما يدل على ان مولاي اسماعيل ربما حصن بعض الحواضر بالجند استجابة لليوسى الذي لاحظ عليه عدم عمارة الثغور وبدائية العتاد الشعبي كالعصى والمقاليع ، وطلب منه تفقد السواحل من قلعية الى ماسة .

على ان الحيلة الذين بلغ عددهم نحو العشرة آلاف كانوا يعبأون ويوزعون بنفس الطريقة حيث كان الطابور من الفرسان أشبه بكوكبة من 600 فارس ولم تكن كتائب الحيلة تتدخل في العمليات الا عند الاقتضاء في حين ان المشاة كانوا دائما على ساق لمواجهة الطوارئ أو خوض غمار «الحركات» وكان قسط مهم من هؤلاء

الفرسان لا يجندون من بين القبائل الا عند الضرورة الحربية الملحة اما في عهد المسلم فان الحيلة لم تكن تعدو كتيبة من فرسان الدرك أو الحرس الموزعين على مختلف المراكز العسكرية ( 400 فارس في القلعة من القلاع الست والسبعين ) ، وفي عهد مولاي عبد العزيز أصبح الفرسان يجندون خاصة من قبائل عبدة والوداية وشراكة والبخاري والشراردة والرحامنة والمنابهة وحربيل .

أما جنود المدفعية فان عددهم كان يتراوح بين 2000 و 4000 رجل يربط جزء منهم في فاس ووجدة ، وقد استعمل المولى اسماعيل « المدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار والكور والقنابل (البنب) وجند في تادلا وحدها 25000 من الرماة (الاستقصا ج 4 ص 38) وعندما فتح جبال فازاز غنم 10.000 من الحيل و 30.000 بندقية (مكحلة) مما يدل على ان البربر كانوا مسلحين على احدث منوال اذا روعى مستوى العتاد في ذلك العصر ، على ان المولى اسماعيل لم يترك للقبائل لا خيلا ولا سلاحا ، اللهم الا عند العبيد والودايا وآيت يمور وأهل الريف المجاهدين في سبته التي حاصرها أيضا 25.000 من أهل فاس وكان جيش الودايا يحتوى على ثلاثة ارساد : أهل سوس والمغافرة والودايا .

وعند فتح العرائش وضع الجنود «المينات» (البارود) تحت خندق سور المدينة الموالى للمرسى ، ثم أوقدوا النار فنفظت وسقط جانب من السور واقتحم الجند المدينة حيث غنموا 180 مدفعا ، وقد استعمل الجند المفرقات في الحصار عند تحرير مدن الشمال ، وكانوا يصنعونها بأنفسهم كما استعملوا اساليب راقية فى الهجوم (طنجة وناحتيتها ج 7 ص 83) (I)

(I) - بلغ عدد المراكب فى دولته عشرين كبارا وثلاثين من البوارج (الفرايط) وبلغ عدد قواد البحر ستين قائدا كلهم بمراكبهم وبحريتهم وبلغ عسكر البحرية الفا من المشاركة وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطبقية أى رجال المدفعية الفين وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشر الفا ومن البيض سبعة آلاف وأما عسكر القبائل الذى كان يغزو مع الجند فمن الحوز ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف . وكان لدى سيدي محمد بن عبد الله 50 مركبا منها ثلاثون من الفرايط تحتوى على 60 قائدا وخمسة آلاف بحار والفين من الطبقية و 15000 من العبيد و 7000 من الاحرار و 8000 جندي من الحوز و 7000 من الغرب

- وذكر محمد بن القاسم المراكشى فى كتابه الحلل البهجة فى فتح البريجة أن السلطان محمد بن عبد الله وصل الى البريجة (أى الجديدة) فى رمضان عام 1182 فشرع نصارى البريجة فى ارسال المجانيق من أسوارها فتقع وراء المحلة فامر السلطان بضربهم بالكور والبنب وهو شئ على قدر القدور مصنوع من سبعة معادن وزن كل واحد يزيد على القنطار ففرت سفن النصارى وغرقت أربعة زوارق منها وانهمز النصارى واسترجع المغاربة المدينة .

وفي العهد الحسني كانت لفرقة الطبجية هذه عشرون بطارية من نوع كروب وشنايدر أو من نوع رشاشات «ماكسيم» وكان المشاة يستخدمون البنادق من طراز «شاشبوا» أو «مارتيني هانري» المصنوعة بفاس على حق خمس في اليوم ، أما القارس فإنه كان يستعمل الحراب والرماح والمسدسات والسيوف والخناجر والبنادق (I) وقد عمد السلطان مولاي الحسن من أجل تجهيز القبائل بالعتاد العسكري وتمكينها من الدفاع عن حوزة البلاد بجدوى - الى تكديس مختلف الاسلحة بفاس كما سلك نهجا مرنا في مدافعة الدول حضاها لبعض وتحقيق توازن يهدف الى الحيلولة بينها وبين أى تدخل فى شؤون البلاد فأسند الى ضابط انجليزى قيادة احد الفيالق والى بعثة من الخبراء الفرنسيين للتدريب العسكري للمجنود المغاربة ، كما أناط بضباط ايطاليين ادارة مصنع الاسلحة بفاس وكلف مهندسا المانيا لبناء برج بالرباط ، وقد سبق للملوك العلويين ان أقاموا عدة أبراج فى كبريات المدن مثل برج صقالة الذى بناه سيدى محمد بن عبد الله عام 1190هـ (1776م) فى الرباط على يد أحد الانجليز وبرج الصراط الذى تم بناؤه أيضا على يد الانجليزى المذكور عام 1169 (1756 - 1755م) وبرج الدار الذى شيده بعد ذلك المولى عبد الرحمن عام 1239هـ (1824م) وكلها فى نفس المدينة .

وقصبة الاوداية التى بنيت أيام المرابطين كانت مركزا لجند الاوداية الذين تاروا فى فاس أيام المولى عبد الرحمن فطردهم من فاس عام 1248هـ (1833م) ومجاهم من ديوان الجيش وشتتهم فى البلاد فاستقر بعضهم فى قصبة الرباط المذكورة وقد بلغت حامية ابي رقراق 2000 من الرماة والبحارة .

وقد تضخم عدد «القصايى» والقلاع حيث أسس المولى اليزيد وحده 16 قلعة علاوة على الست والسبعين قلعة الاسماعيليه وجهاز كل واحدة منها بـ 20 مدفعا . أما قيادة الجيش فإنها ترجع فى الواقع الى السلطان الذى يعتبر القائد الاعلى الذى يشرف بنفسه على الحركات المهمة وقد لوحظ ذلك منذ عهد الادارسة ثم فى أيام المرابطين حيث نبه عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر اللمتونى الى أن مهمه الامير ليست هى القتال وانما تنحصر فى الاشراف والتوجيه ، ولم يكن العلاف

(I) - كان مولاي الحسن يحضر تدريب الجند كل اثنين ويستعرض الجيش كل أربعاء (سوردون - فرنسا فى افريقيا الشمالية ص 201) وكان مولاي عبد العزيز يستعرض الجند فى المصلى بفاس .

الكبير هو وزير الحربية بكل معنى الكلمة وانما كان صلة وصل بين الملك والجيش يسهر على تموين الجند - طبقا لمقررات السلطان - بالميزة والعتاد ، كما ينفذ الاوامر الملكية فيما يخص تعيين الضباط والقادة وكان العلاف يمسك سجلا للعسكر يقدمه للسلطان يوميا مذيلا بامضاء الصدر الاعظم حيث تسطر لائحة الجند مع التغييرات الطارئة .

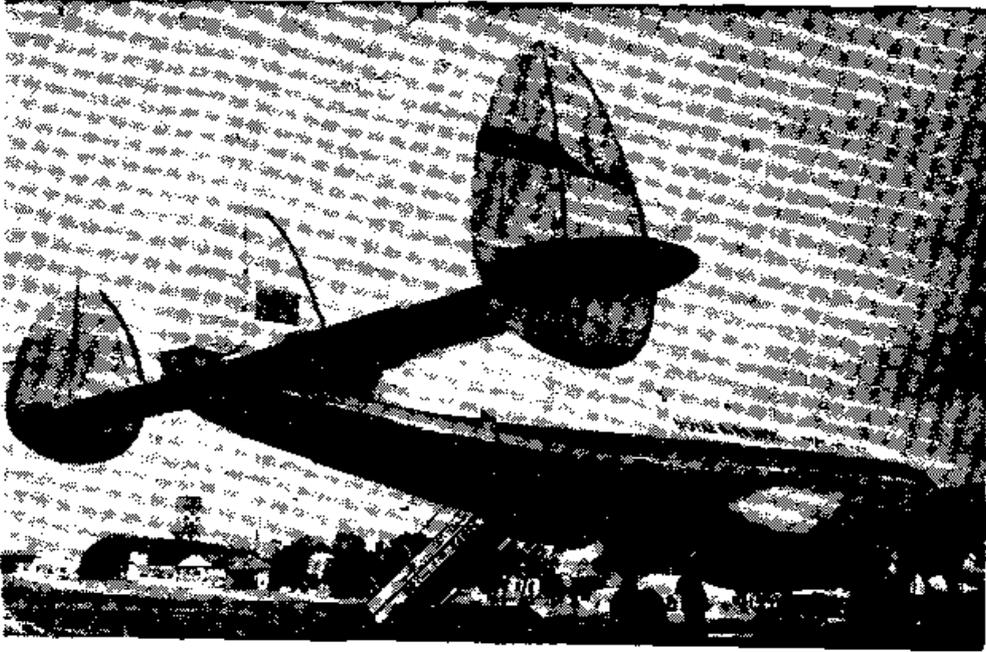
ولكن القائد الاعلى الفعلي هو قائد المشور يليه قائد المحلة (والمحلة مبدئيا هي الفيلق الذى يربط موقتا فى ناحية مضطربة ) وهو أشبه بجنرال يشرف على قواد الرحي وقواد المائة والمقدمين وشرطيين المعسكرات ورجال الامن الذين يسيرون فى ركاب الجيش ، أما قائد العسكر فهو كناية عن قائد جيش او فيلق يقوم عمليا بدور الامين العسكرى أو ضابط التموين تحت امره كبير المحلة .

أما التدريب العسكرى فقد اتخذ عدة أطوار أولها الاسلوب المتبع فى تدريب العبيد على الجنديّة ، وما يمكن ان نسميه بالهندسة العسكرية ، فقد كان المولى اسماعيل يعمد الى اولاد العبيد فيوزعهم على البنائين والنجارين ومختلف أرباب الحرف ثم ينظم التدريب على ركوب الدواب بالتدريب ، ثم تاتى السنة الاولى للتدريب العسكرى الحقيقى فيلبس الجندي الزى العسكرى ، ثم يمارس ركوب الخيل وسوقها فى الميدان ويمارس الكر والفر «والمطاعنة والمراعاة على صهواتها» كل ذلك خلال سنوات يتدرج هؤلاء الجند بعدها فى سلك الجيش ويكتبون فى ديوان العسكر وقد بلغ عدد من مارس التدريب على هذه الطريقة 150.000 منهم ثمانون الفا موزعة على قلاع المغرب 25,000 منها فى مكناس العاصمة العسكرية كحرس للسلطان 70.000 من المحلة بمشروع الرمل وعلاوة على جيش العبيد نظم مولاي اسماعيل حماة للسواحل فتمكن من تحرير طنجة والعرائش وأصيلا والمعورة .

ويظهر ان المغرب نهج فى التدريب العسكرى مناهج مختلفة منها التركى والانجليزى والفرنسى لا سيما فى فاس والرباط وطنجة وقد ذكر «رونى لوكبير» ان المغرب أوفد بعثات عسكرية الى الخارج لتتدرب فى الفيالق الهندسية بأوربا وبالاخص فى مونبوليى على حفر الخنادق والتعليم والنسف بحيث يرجع البعض بتكوين عسكرى حقيقى وكان الجيش يمارس التمارين ويقوم بالمناورات العسكرية أربعة أيام فى الاسبوع اما فى أرياض المدينة كفاس واما داخل القلاع كما فى طنجة،

وقد استقدم المولى محمد بن عبد الله بعثة من الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب  
رماة الجيش كما وجه مثلا 600 جندي من آيت عطة و 400 من عبيد تافيلالت الى  
طنجة للتدريب على العمليات البحرية .

وفى كل يوم اثنين كان مولاي الحسن يحضر بنفسه فى تمارين المدفعية ،  
وفى يوم الاربعاء كان يستعرض الجند لمراقبة عدده وعدده ، وهذا الاستعراض اندرج  
ضمن العوائد العسكرية بالمغرب ، كما لاحظنا ذلك منذ عهد المرابطين .



طائرة مغربية

## الفصل الحادي عشر :

### الملاحة والقرصنة

كانت القرصنة من أعظم النكبات التي منيت بها القرون الوسطى وفترات من العصور الحديثة فقد كانت القرصنة حركة رابحة يجذب لها المسلمون والمسيحيون على السواء وسنحاول ان نحدد في هذه العجالة مدى المسؤوليات التي يتحملها الطرفان لأن كثيرا من المؤرخين نزعوا الى القاء التبعة كلها على الملاحة الافريقية الوطنية .

لقد وصف كثير من المؤرخين البحارة المغاربة بأنهم أقبح من خاض لمج البحار من الامم والشعوب حتى علق هذا الوهم بأذهان الكثير من الناس وتبلور في صورة حقيقة واقعية مع ان ذلك يتنافى مع تطور الاحداث قبل وبعد القرن السادس عشر الميلادي الذي يمكن ان يعتبر في نظرنا بمثابة حد فاصل في عصر العلائق الطيبة الواثقة في افريقيا وأوربا والعصر الذي غمرته الآلة واستغلال الاستعمار الناشئ وسنرى كيف ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح في تاريخ القرصنة بالبحر الابيض المتوسط فقد حاول مؤرخان اثنان يجمعان بين النزعات والضلالة رسم لوحة جلية المعالم عن السمات البارزة التي طبعت نشاط القراصنة خلال العصور الوسطى وفي غضون فترة غير قصيرة من العصور الحديثة وماذان المؤرخان هما سيسموندي صاحب كتاب تاريخ الجمهوريات الايطالية « ولا طرى » في مصنفه حول صلاة المسيحيين بالعرب في الشمال الافريقي وقد عمد كلاهما الى دحض الافتراءات المروجة ضد العرب في شأن الفطائح المرتكبة باسم القرصنة البحرية .

فهناك ظاهرة اولى تدل وحدها على ضالة تأثير القرصنة في العلائق المغربية

المسيحية وهي ما أكده المؤرخ بالدوتشي بيركولوتي Baldicci Pergolotti

من ان المغرب كان في حقل التجارة العامة الدولة الثانية في الصفقات المتبادلة في أوربا والعالم العربي فما كانت هذه العلائق لتستقر وتتنظم لولا ضمان حظ ولو قليل من السلامة والطمانينة فاستيناس الافارقة بالمسيحيين لم ينصرم رغم تهجمات رعايا بعض الدول الحليفة للمغرب كالجنوبيين الذين وجهوا حملة جزئية ضد طرابلس الغرب التي ظلت منضوية مدة طويلة تحت لواء ملوك مراكش وفاس

ذلك ان الاميرال الجنوى فيليب دوريا Philippe Doria الذي هزمه الاركونيون في سردينيا عمد الى الانتقام لهزيمته الشنعاء من مدينة مغربية وقد أكد المؤرخ ماتيو فيلانسي أنه لم يكن هنالك اى مبرر لنشوب حرب بين الجمهورية الجنوبية وطرابلس سوى ان هذه المدينة كانت غنية سهلة المآخذ فكان ذلك أبلغ مسوغ لهذا الاعتداء ففي بحبوحة الحركة التجارية الكبرى التي كانت تذكى هذا الميناء الافريقي تمكنت سبع قوارب جنوية من الرسو عام 1355 بالقرب من المراكب الاسلامية دون اثاره أدنى شبهة وفي غياهيپ الدجى تظاهر الاميرال بالابتعاد عن الشواطىء ولكنه مالبت ان فاجأ المرسى بكرة فاقتحم اسوارها وقتك بالمقاومين من رجالها واستولى عنوة على جميع مرافق المدينة وابرق الى جمهورية جنوة بانتصاره البارد وأصدره أوامره باكتساح القصور والدور التجارية والمنازل الثرية وابتزاز مافيها من ثروات فارتفعت قيمة اسلابه الى نحو المليونين من الفلورين (I) علاوة على سبعة آلاف اسير من رجال ونساء وأطفال غير ان خوف الجنوبيين من ثار الاقطار الاسلامية حدا الجمهورية الى الحكم على الاميرال وجيشه بنوع من الابعاد غير أن الاميرال عفى عنه بعد ذلك بثلاث سنوات ومع ذلك ظل عدد ضخم من الاسارى الطرابلسيين فى شوارع جنوة ينتظرون الحرية وقد ساق لاطرى هذه القصة ولاحظ أنه بو اقترب العرب ذلك بلدة مسيحية لاثار صرخات مؤرخى العرب وتنديداتهم بوحشية العرب .

وقد اسفر هذا العدوان الجنوى عن بعض الخلق لان افريقيا المسلمة التي كانت تربطها معاهدات بالجمهورية الايطالية آلهما هذا الجرح الوقح فى كرامة رعاياها وعمدت الى جمع الاكتتابات لفكك الاسرى وقد اسهم السلطان أبو عنان المرينى فى افتداء طرابلس وتحرير عدد كبير من الافارقة ويجب الاعتراف بأن الجنوبيين لم يكن من عادتهم ارتكاب مثل هذه الفظائع فرعايا جنوة الذين كانوا يعيشون فى سبتة شاركوا فى الذب عن حوزة هذه المدينة المغربية ضد الصليبيين الذين اغاروا عليهم عام 1234 ميلادية وبالرغم عن هذه الاعتداءات النادرة التي اتسمت فى الغالب بطابع خاص كانت روح التوادد الطيب تذكى العلائق بين الحكومات المسيحية والاسلامية التي حظرت القرصنة على رعاياها وسمحت بتعويض الاجانب المتضررين من ذلك حيث توجد معاهدتان امضاهما المغرب مع كل من بيرزة وجزيرة ميورقة بل ان هذه الحكومات كثيرا ماكانت تحشر سفنها للاقتصاص المشترك من القرانصة وقد نصت معاهدة .

سيبو فى فصلها التاسع عشر على أنه اذا ما أرسل الموحدون مراكبهم لمطاردة

(I) كان هذا النقد مستعملا فى القرن الثامن الهجرى فى بعض البلاد العربية كالشام وكان معروفا بفلور ( المدارس فى تاريخ المدارس للنعمى من 255 )

قرصان جنوبيين فان جمهورية جنوة يكون من واجبها تسليح سفن للمشاركة فى هذه المطاردة ومن أجل الحيلولة دون استفادة القرصنة من أسلابهم حظرت الحكومات المذكورة بكيفية باتة بيع الغنائم والأسرى والتزمت بالمساعدة على افتكار الأسارى العاجل بل وتحريزهم بدون عوض على ان هذه الحكومات قررت فيما بينها اعدام وتترك المسيحيين أو المسلمين الذين يقرصنون ضد رعايا الدول المتحالفة . غير أن الارقاء من المسلمين ظلوا موقورى العدد فى أوروبا حسب شهادة لاطرى بل كان المسيحيون الراسفون فى الانحلال بأفريقيا أكثر منهم عددا يعيشون بالقرب من مواطنهم الذين يتجرون فى أمن وطمانينة فى المدن الاسلامية .

وهؤلاء الأسرى لم يكونوا كلهم ضحايا للقرصنة بل كان منهم أسارى حرب ويجب ان نميز من الاحداث الحربية الناشئة بين دول متحاربة وأعمال التخريب القرصنية التى تجرف بكل التجار وكل الامصار من اصدقاء وخصوم ومن مواطنين وأجانب وتوجد معاهدة امضيت عام 1323 بين اراكون وتونس تعتبر القرصنة نفسها كوسيلة حربية عادية مشروعة سواء عند المسلمين أم عند المسيحيين على ان القانون الدولى لم يتمكن رغم تقدمه من استئصال ما تنطوى عليه المعارك البحرية من مظاهر الوحشية والجور ضد الملكية .

وقد تساءل المؤرخ المسيحى لاطرى عن مدى التبعة التى يتحلها كل من المسيحيين والمسلمين فى أعمال القرصنة خلال الفترة التى عقببت غزوات العرب والتى يمكن ان توسم بأنها عهد سلام وتجارة آمنة فلاحظ أن احصاء الجرائم التى كان البحر الابيض المتوسط مسرحا لها بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر الميلاديين لا من شأنه - لوتتم - ان يحمل المسيحيين قسما كبيرا جدا من مجموع عمليات النهب والتخريب البحرية التى ينسب المؤرخون ويلائها الى الافارقة فاذا بين التاريخ ان المسيحيين كانوا أكثر من غيرهم تضررا من القرصنة الاسلامية فما ذاك الا لكون تجارتهم كانت أوسع وشواطئهم أشرح عرضة للاكتساح ولان تاريخهم العام اوضح واجلى عند مؤرخى العرب من التاريخ العربى فقد شهد المؤرخون المسيحيون بالمصائب الكبرى التى ارتكبها قراصنتهم .

وقد أكد لاطرى من جهة أخرى أن الاعتدآت والفظائع المنسوبة للمسيحيين فى علائقهم مع الغرب كانت أبلغ مما اقترفه العرب وضرب لذلك أمثلة تصور مدى تبعة المسيحيين فى قرصنة البحر المتوسط خلال العصور الوسطى ذلك ان جزر المتوسط مثل سردينية وكورسيكا وصقلية والباليار ماكاد العرب - يزحزون عنها حتى أمست ملجأ لقرصنة أوربيين لا يقلون خطرا عن قطاع الطرق الكبرى وقد كانت أرباض مدينة كالكليارى « اوكارا للمصوص » واضحت مالطة فى القرن الثالث عشر الميلادى مركزا لغزوات شنها رجل من جنوة مشهور فى تاريخ الملاحة

ولم يكن هذا الرجل سوى لص من اللصوص الحقيقيين حسب شهادة عدة مؤرخين  
إيطاليين وقد عاش في نفس العصر أحد القراصنة وهو هوك فير Hugues Fer  
الذى أصله من مرسيلية والذى الف مع اميرال صقلي شركة ائيمة اثرت على حساب  
تجارة البحر المتوسط بحيث أصبح بيع الرقيق من المسلمين في المدن الاوربية ظاهرة  
مالوفة ازدادت استعجالا مع الايام ويكفى ان نعيد الى الاذهان قصة آلاف الفلاحين  
والملاكين العرب الذين اختطفوا من قابس عام 1284 م . وجربة عام 1310 م وطرابلس  
الغرب سنة 1355 وبيعوا بعد ذلك كالبهائم الحسيصة في البلاد الاوربية .

ومعلوم أن الاسطول الموحدى كان يسيطر على البحار لأنه كان أول أسطول في  
البحر الابيض المتوسط حسب رواية الاستاذ أندري جوليان عميد كلية الآداب  
بالرباط ... وقد لا حظ ابن أبي زرع (I) أحداث عبد المومن لاسطول عام 557 في جميع  
سواحل المغرب فأنشأ (400) قطعة منها في حلق المعمورة (المهدية) ومرساها  
(120) وفي طنجة وسبتة وباديس ومراسى الريف (100) قطعة ومنها في بلاد افريقية  
ووهران ومرسى هنين (100) قطعة ومنها ببلاد الاندلس 80 قطعة (2) وبلغ الجيش  
الموحدى اذ ذاك أزيد من 380.000 فارسا و 100.000 راجلا ، وفي هذا العصر كان  
خطر القراصنة الاوربيين نسبيا حيث كانت للملوك الموحديين (مليشية) مختصة  
في قمع قرصنة المسيحيين والعرب على السواء ، ولكن الملاحة الغربية ما لبثت أن  
تفوقت فكان لذلك أثره السيء .

على التجارة البحرية حيث لا حظ نظري نفسه أن كثيرا من رجال الملاحة الاسبان

---

(I) الانيس المطرب بروض القرطاس ج 2 ص ( 160 - 167 )

(2) وفي عهد أبي الحسن المريني كانت المنارات ممتدة بين أسفى ومدينة  
الجزائر ( المسند لابن مرزوق تعريب لفي بروفنصال مجلة هيسبرس عن ثلاثة  
الاشهر الاولى لعام 1925 ص 61 ) وقد لاحظ روير مونطاي في كتابه البرابر والمخزن  
« ص 22 » أن البحارة العرب جالوا الى القرن الثالث عشر الميلادى في شواطئ  
المحيط الاطلسي من طنجة الى السينغال وأكد جوستاف لوبون في كتابه حضارة  
العرب ( الطبعة الفرنسية ص 284 ) ان العرب ظلوا مدة طويلة قادة البحر الابيض  
المتوسط وأوضح ( كودار ) في كتابه وصف وتاريخ المغرب جزء 2 ص 156 أن اسطول  
مولاي سليمان كان يتوفر عام 1793 على نحو 47 سفينة منها عشر بوارج يقود مجموعها  
سنة آلاف بحار من خيرة الملاحين ، وفي عهد سيدى محمد بن عبد الله كان عدد  
البوارج ثلاثين من بينها خمسين مركبا وقادتها نحو الستين يعمل تحت امرتهم  
خمسة آلاف بحار والفان من الرماة ، وكانت من بين البواخر الحربية المغربية عام  
1904 ( الحاشي ) ( وسيدى التركي ) ( والتريكي ) ( والبشير )

والإيطاليين لم يتورعوا عن اراج الذهب الفرضى فى صفقاتهم التجارية ففى عام 1200 ميلادية هاجمت سفينتان من سفن (بيزا) فى تونس ثلاثة مراكب اسلامية فى بحبوحة عهد السلام ، واغتنمنا غرة المفاجأة فأحاطتنا بالربابين وانتهك رجالهما أغراض النساء كما ابتزوا ما وقع فى أيديهم من متاع وفى نفس العهد كان القراصنة الجنويون يسعون فسادا فى جزر امبراطورية الاستانة وسواحلها وكانت الضربات المسيحية تترى خاصة على الاراضى والمراكب الاسلامية ، غير أن البحارة المسيحيين كانوا يجرفون بكل ما يعترض طريقهم دون تقيه ولا تحرج سواء كان مسيحيا أو مسلما وقد أكد لاطرى أن هذه الفضائع لم يكن لها أى مبرر وطنى أو حربى على ان البحارين البندقيين الذين كانوا مشهورين باستقامتهم بين ملاحى أوربا لم يحترموا دائما التجار الاجانب وكان السلاطين الاتراك يتدمرون غالبا من هؤلاء العداة الذين كانوا يلقون جزاءهم على يد البحارين اليونانيين وأحيانا كان الملاحون السكندنافيون يطيفون بالسواحل الاسلامية كالتجار وفى الغالب كاعداء وقرصنة ، وفى عام 1053 ميلادية اكتسحت قطعة اسكندنافية المدن الاندلسية واستولت فى مياه سردينية على مركب عربى ضخيم عمدت الى بيع أسلابه فى مهدية وطرابلس اللتين كانا اذ ذاك تحت حكم النورمانديين وقد تحدث عن ذلك بإسهاب المؤرخ ريانر Rinat فى كتابه حول غزوات السكندنافيين فى الاراضى المقدسين ولكن هذا لم يمنع بحارى الشمال = ومنهم السويديون خاصة = من التجارة المباشرة مع المسلمين الافارقة فكانت العلاقات التجارية بين أوربا والمغرب وادعة أحيانا مما دعا المؤرخ لطفى الى التأكيد بأن التجار البندقيين الذين كانوا أنزه من غيرهم ظلوا يجولون الى القرن السادس عشر الميلادى فى شواطئ افريقيا فى بحبوحة الانتظام والأمن ، وكان لمعظم الدور التجارية مراكز وعملاء على هاته الضفاف وخاصة فى طنجة ، وكيف لا وقد نصت المعاهدة المشار اليها والمؤرخة ب 1341 ميلادية على ان البفظائع المتبادلة بين القراصنة المسيحيين والمسلمين لا يمكن ان يتحمل تبعاتها البتة رجال التجارة الذين كان يتاح لهم الانتقال من بلد الى بلد فى طمانينة وسلام تحت الرعاية الملكية دون أن يزوروا وذر الآخرين .

تلك خلاصة قسط التبعة التى تحملها المسيحيون فى عمليات البحر الابيض المتوسط وسنحاول أن نرسم صورة أخرى عن تطور القرصنة الموسومة بالعربية أو الاسلامية والتى انقلبت من صفقة هدفهم الريح الى عملية أصبحت عنوانا عن رد فعل وطنى أى سياسى ضد غزوات الاسبان والبرتغاليين للاراضى الافريقية وعمليات التعذيب والتحقيق Inquisitions التى ذهب ضحيتها مآت آلاف الاندلس من المسلمين واليهود .

نعم ان القرصنة فى المياه المغربية لم تصدر دائما عن ملاحين من الاهالى بل

كانت في الغالب من فعل اخلاط المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام أو الاندلسيين الموثورين الذين طردهم الاسبان من الفردوس المفقود فالتجأوا الى السواحل المغربية متحفزين للوثوب على العداة وقد وجد هؤلاء الطرداء الاندلسيون من مسلمين ويهود الاقتبال الرحب من طرف ملوك المغرب الذين اذكتهم عاطفة مزدوجة من السماحة والاربحية .

وقد رأينا موقف سلاطين المغرب في المراحل الاولى للعصور الوسطى وشنهم الحرب شعواء ضد القراصنة مهما كانت جنسيتهم وملتهم ولم يكونوا يكتفون بالقمع بل كانوا يمنحون التعويضات عن الحسارة التي عجزوا عن تلافيتها كما شهد بذلك « لاطرى » وكان أساس سياسة عبد المومن الخارجية معاقبة كل من تجرأ على الملاحه المسيحية من المسلمين وحتى في أبان الحرب كان للملاحه الوطنية وحدها الحق في مطاردة وجزر أساطيل العدو ذلك الموحدين الذين كانوا يستجيبون لمقتضيات التجارة الدولية ونواميسها والذين لقنوا أوروبا بعض مبادئها حسب شهادة اندرى جوليان الزموا أنفسهم اذ ذاك حماية الحرية وضمانه الطمانينة والسلام في البحار رعيًا لمصالح تجارتهم الخارجية .

غير ان تفكك اوصال الامبراطورية الموحدية التي امتدت الى طرابلس والاندلس وانقسامها بين امراء مستقلين جعلت هؤلاء عاجزين عن تعقب القراصنة الذين تظاولوا في البحار .

وقد كتب لاطرى يقول : ( في نفس الوقت الذي كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية يعاملهم سلطان المغرب وسلطانه بحسن نية استندام نهب القراصنة المسلمين في البحار بالرغم عن المعاهدات والجهود التي ما فتىء الامراء المسلمين يبذلونها ) وقد لوحظ ذلك خاصة في القرن الرابع عشر الميلادي .

غير أن هذه العصاة الافريقية من القراصنة لم تكن كلها اسلامية الملة بل كان منها خوارج ومثشيوعون يتقربون الى الله زلفى ببيع المسلمين الى النصراني وقد أكد المؤرخ التجاني ذلك في رحلته الى تونس عام 1306 م وذكر صاحب ( كتاب ( معاهدات السلام والتجارة ) نقلا عن التجاني ان هذه الفرقة من الخوارج كانت تلت تقطن جانبا من الساحل التونسي فقد تألفت في ميناء بجاية في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي عصاة من الحائضين في لجج البحار المنحدرين من الجبال المجاورة ببجاية وعنابة والمتنزهين على غرار أهل جربة .

وبصدد مسئولية الاندلسيين في الفطائح البحرية لاحظ لاطرى أن استفحال القرصنة راجعة لانتصار الاسبان الدين قذفوا الى شواطئ المغرب باهالي الاندلس الموثورين الذين لم ير المغرب مندوحة من ايوائهم .

نعم لقد آوى سكان السواحل المغربية القراصنة الاندلسيين البؤساء وزاد ذلك استفحالا غارات الاسبان على المغرب والخنق الشديد الذى اذكى المعسكر المسمى آنذاك ضد المسلمين مما حدا بالاب دان Père Dan الى القول بأنه لا ينبغي أن نستنكر ما يقوم به القراصنة المسيحيون ضد خصومهم فى الدين وبذلك يتأكد لنا أن القرصنة المسيحية اتخذت أحيانا مظهر حملة صليبية ضد الاسلام على أن المغاربة لم يثبات لهم لاسهام عمليا فى هذا العراك الزجرى لانشغالهم فى الذب عن حوزة المراكز التى اقتطعها الاسبان والبرتغاليون فى التراب المغربى .

وقد كان مجموع المغرب مهددا اذ ذاك من طرف غزاة الاسبان الذين حدثهم الى اكتساح افريقيا روح صليبية باركتها رسميا البابوية اذ ذاك ، ولم تكن تخلو هذه الغارات من الرغبة فى الغنيمة لا سيما وأن استقرار المسيحيين فى الشواطىء المغربية كما يقول الاستاذ تيراس سلسلة من غزوات النهب قام بها البرتغاليون والفرسان الاسبان ، على أن هاته الاعتدآت ضد المغرب تندرج فى اطار حملة استعمارية واسعة النطاق زجت أوروبا بنفسها فيها فى القرن السادس عشر الميلادى ذلك أن الاستعمار الاسبانى البرتغالى لم يسعه الا أن ينجذب لتروات بلاد قريبة عن أوروبا مثل الشمال الافريقى .

ولا يمكننا أن نفصل تاريخ هاته القرصنة الموسومة بالافريقية عن حركة الغزو والتمسيح التى نسقت ( كما يقول تيراس ) تنسيقا بديعا تحت ظل البابوية . وقد اغار الاسبان على شرق البلاد بينما اكتسح البرتغاليون غربها محاولين اقرار حمايتهم على جميع المغرب ، ولكن هاته المحاولات باءت بالفشل وارتطمت بصمود تلقائى عنيف حيث هن الشعب المغربى الذى كادت تجرف به لاول مرة فى تاريخه حملة الغزاة الاوربيين فى كتلة متراصة لصد العدوان فخف المتطوعون من جميع أنحاء البلاد للتجمع من انقاد الوطن المهدد ، وقد لاحظ تيراس أن مجاهدى الجنوب الاقصى للمغرب شوهوا وراء أسوار سبتة متحفزين للوثوب على العدو ، فقد كان المغربى متسامحا لحد الآن ازاء الاوربيين واستوثقت علاقته مع أوروبا طوال خمسة قرون فى جو من التحالف الواثق الهادى غير أن هذا المساس بسيادته وكيانه وذلك التلم الاليم لكرامته وحرية أسفرا عن تفتق عهد جديد وسمه الحذر والحيطه بطابع خاص فانقلبت الجماهير المتسامحة المسالمة الى شعب هائج مس مساساً بليغاً فى شعوره القومى فانتفض انتفاضة الموتور للذب عن حماه وحذاه ذلك الحذر الى الانطواء على نفسه لا بالنسبة للعالم المسيحى وحده بل حتى بالنسبة للامبراطورية العثمانية التى اكتسحت منذ القرن السادس عشر الميلادى الاقليميين الشرقيين للشمال الافريقى وهما الجزائر وتونس ، ذلك أن التوسع التركى كان يرمى الى الاستيلاء فى شمال المغرب على بعض المراكز الاستراتيجية التى كانت تركيا ترى من

الضروري مراقبتها لتعزيز كفاحها ضد الاسبان غير أن المغرب الذي كان شديد التمسك باستقلاله لم يتوان في خوض كفاح مرير من أجل الدفاع عن كيانه ضد كل المعتدين ولو كانوا من المسلمين ، فكفاحه هذا لم يتم اذا بسمة عنصرية ولا ملية وانما كان رد فعل قوى ضد الاجنبي بصفته معتديا وهذه الفترة العصبية في التاريخ العربي قد وافقت سقوط غرناطة آخر معقل اسلامي في اسبانيا والفتك الذريع الجماعي بعشرات الآلاف من الاندلسيين فاضطر المغرب الذي انتزع منه قسط من ترابه الوطني الى ايواء المهاجرين الاسبان الذين حملوا معهم الحقد وانطوت قلوبهم على ضغينة ضد العداوة ممن طردوهم من بلادهم . نعم ان المهاجرين الاندلسيين حنقوا أشد الحنق على اسبانيا التي فتكت في ظرف 139 سنة بنحو ثلاثة ملايين من المسلمين واليهود حسب المؤرخ لسورانت Lorente في تاريخه النقدي للتعذيب باسبانيا كما أحرقوا عام 1599 أزيد من مخطوط عربي حسب رواية المؤرخ بيرسكوت Perscott في كتابه حول فراند وايزابيلا ص 451 وهكذا انقلب الاندلسيون الذين فقدوا أموالهم وعائلاتهم من جراء الضربات المتوالية التي أنزلتها بهم باسبانيا الصليبية هبوا ليأخذوا الثأر لقتلهم فاستوطنوا بعض مدن الشمال وكونوا عصابة من القراصنة هاجمت الاساطيل المسيحية في قوة وعنفة ، فتحولت القرصنة البحرية آنذاك الى كفاح وطني وقد أبرز المؤرخ الانجليزي لينبول هذا النوع الجديد من الحرب في الكتاب الذي صنفه حول قراصنة افريقيا وبذلك ارتسمت القرصنة كمرحلة جوهرية في المناورات الحربية في ذلك العصر فاقض القرصنة الاندلسيون مضاجع الغزاة الاسبان الذين كانوا قد استقروا بقسم من الساحل الافريقي مما حداً الاستاذ تيراس الى القول بأن سيطرة العثمانيين على سواحل الجزائر وتونس كانت نتيجة رد فعل . لعائلة من القرصنة ضد الاكتساحات الاسبانية على هاته الشواطئ كما أكد المؤرخ أندري جوليان أن تدخل هؤلاء القراصنة العرب هو الذي ادى الى فشل سياسة اسبانيا الافريقية كما غير مجرى تاريخ القارة الافريقية .

ففي عام 1501 م نقل السيد خير الدين المعروف عند الاوربيين بباربورس وهو مسيحي الاصل من جزيرة ليسوس اليونانية - مركز عملياته الى البحر الابيض المتوسط بعد ما ساعد على اجازة سبعين ألف أندلسي الى التراب المغربي ( راجع لين بول ص 59 ) وبذلك اندرج في سلك عصابة خير الدين عديد من المرتزقة للقيام بالقرصنة في مياه المتوسط .

نعم كانت هناك أوكار أخرى للقرصنة في شواطئ الاطلنطيك لا سيما في مصب أبي رقراق تطور نشاطها مع الايام حتى أصبح رجالها معروفين بالقرصنة السللاويين وهو اسم أطلق في الحقيقة على مجموع القراصنة المغاربة غير أن هؤلاء لهم وضع خاص يعتبر مظهرا لمشكلة استثنائية هي مشكلة الداخلين في الاسلام من

المسيحيين في افريقيا وسنرى كيف أن هذه القضية المعقدة خلقت لبسا خطيرا في ذهن بعض المؤرخين .

وعلى أى حال فإن الاعمال التي كان يرتكبها هؤلاء القراصنة أصبحت مع الزمان مثار قلق بالنسبة للمغرب ولم يكن في وسع ملوكنا مواجهة هذه المشاكل لان المسئولية ترجع في الواقع الى أوروبا التي تحددت السلطات المغربية المشروعة فاعترفت لمن يسمون بالقراصنة المغاربة طوال قرنين اثنين بوجود قانوني شبه رسمي ( راجع كتاب دو كاستر في الموضوع ) بل ان بعض الدول الاوربية حالفت هؤلاء القراصنة وشجعتهم ثم شملتهم بعطفها وحمايتها مثل هولندا وانجلترا فلا يقرب عن أذهان المؤرخين ذلك العمل الغريب الذي قامت به الولايات العامة ( أى هولندا ) حيث أجبرت بحارة لوبيك ( وهي مرسى المانية تقع على 15 ك . م . من بحر البلطيق ) على اعداد مركب جديد لتسليمه الى القراصنة المغاربة بل أن الاسطول الانجليزي حمى هؤلاء القراصنة عام 1681 م . بدعوى مسالمته لهم ذلك أن وجود القارصنة بالمغرب كان يشجع دسائس ومناورات بعض الدول التي كانت تتحين الفرص للانفضاض على الشمال الافريقي وقد استغلت بعض هذه الدول القرصنة نفسها فاعتبرت وجودها خطرا على كيائها وألفت كتلة عملت على القضاء على أسطولنا الوطني الذي كان معقلا متنقلا وحصنا مكيئا للذب عن سيادة البلاد فكان ذلك من أوروبا الخطوة الاولى في سبيل القضاء على استقلال المغرب .

وقد كتب دو كاسر بحثا فيما حول تاريخ « قراصنة سلا » فأكد أن المغرب تمكن من فرض وجوده خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى حد أن الدول المسيحية خطبت ودلى وحالفته وأدت له جزية ثم علل ذلك بأن أسطولا قرصنيا كان يثير الرعب في الاطلنطيك فوجب أن تضمن ضد السلاويين سلامة السفن التجارية عن طريق المعاهدات والجزيات .

ومعلوم أن القرصنة في حوض أبي رقراق من آثار أوربيين أنفسهم لان ذلك كان مجهولا في المغرب حتى استقر أيام المرينيين « وكرقرصني » في المعمورة (المهدية) على ساحل الاطلنطيك فعظم شأنه واستفحل أمره وكان القائمون عليه اخلاصا من جميع الامصار فيهم من المسيحيين أكثر من المسلمين كما يقول دو كاستر .

ولكن بعد دولة الشرفاء واسترجاع المغرب لمراكزه البحرية وقع حادثان اثنان كما لهما كبير الاثر في تاريخ المغرب وهما استلاء خير الدين ورجاله على مدينة الجزائر وتحول محور التجارة الدولية من الشرق الى الغرب على أثر الاكتشافات البحرية الكبرى فقد أصبح مضيق جبل طارق المحجة التجارية الكبرى وكان من بين المدن الساحلية التي نجت من غارات البرتغاليين والاسبان سلا الواقعة على ساحل الاطلنطيك وتطوان على ضفاف المتوسط فأسميتا « مهدا » للقراصنة المغاربة ثم صارت

سلا خاصة المدينة القرصنية الرابعة - حسب دوكاستر - بعد طرابلس الغرب  
وتونس والجزائر (I)

وبالرغم عن كون سلا (2) كانت رديئة الميناء فقد اصبحت أهم مورد للغرب حيث كانت أوروبا تروج مجموع منتجاتها المصدرة للغرب ، فقد لاحظ قنصل فرنسي (1699) أن منتجات الغرب كانت تباع بأقل من ثمنها في أوروبا نفسها نظرا لوفرة الكمية المستوردة وطوال قرن كامل انحدر الى سلا من الفردوس المفقود عدد كبير من المهاجرين على اثر سياسة القمع التي نهجتها اسبانيا اذ ذلك واستمرت هذه الهجرة المؤلمة الى عام 1610 ميلادية وهو تاريخ الطرد النهائي المقرر من طرف فلييب الثالث ولم يندمج الدخلاء الجدد مع سكان المدينة بل أنافوا عليهم عددا و ثراء وقد انجذب لهاته المدينة التي كانت في حمى أمنع من المدن الاخرى ضد ردود فعل المسيحية عدد لا يستهان به من الاندلسيين - الذين كانت تذكيتهم روح المغامرة البحرية فوجدوا في القرصنة ذريعة للاقتصاص من اسبانيا بوجه خاص ومن المسيحية عامة ، مع تنمية ثرواتهم في آن واحد ، وقد شجع السلطان عبد المالك السعدي - استقرار هاته العائلات الاندلسية لا سيما وان المدينة المعمورة التي سيق لعبد المؤمن الموحدى أن أقام فيها 120 قطعة حربية (3) كانت لا تزال هي وأصيلا والعرائش في قبضة المسيحيين ، فكانت سلا بذلك هي الميناء المغربى الوحيد بالاطلنطيك الذى تتأتى له مراقبة مضيق جبل طارق الذى لم تكن تفصله عنه سوى خمسين

(I) كانت سلا ملجأ امينا وقد تنبه الى هذا الوضع الشريف الادريسي الذى وصفها بأنها منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول اليها من جهته ( وصف افريقيا الشمالية والصحراء المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الادريسي طبعة الجزائر عام 1957 ص 48 )  
وقد ورد فى تاريخ الدولة السعدية ( طبعة 1353 ) أن مولاي عبد الملك السعدي أول من أمر بانشاء السفن فى العرائش وسلا ( ص 53 ) على أن دار الصناعة كانت موجودة فى سلا قبل ذلك .

(2) وقد لاحظ المؤرخ كايى ان هذه المرسى صارت منذ 1614 م الميناء الاسلامى الاقرب الى أوروبا فى مغرب الاطلنطيك (تاريخ الرباط الاصغر ص 92) الا ان هذا الضيق الذى كان يتسم به مدخل الوادى قد نقص على اثر زلزال وقع فى لشبونة بعد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة مما ساعد دخول مراكب مهمة الى المرهى ( كتاب اسماعيل الاكبر للمؤرخ ما كسانج ص 71 )

(3) يرى جاك كاييى أن المقصود بسلا القرصنية هي سلا الحديثة أى الرباط ويخالفه فى ذلك دوكاستر ، على ان الادريسي نفسه أطلق اسم سلا الحديثة على سلا الحالية ( المصدر المذكور ص 48 )

مرحلة وقد لاحظ الاب دان ( Dan ) أن هذا الوضع ساعد القراصنة على الانزواء المستمر استعدادا للتحفز ضد السفن الاجنبية وكانت معرفة الاندلسيين للجهات الاسبانية ولثنايا البلاد تمكنهم من تقمص اللبوس اللائق للتربص بالعدو والانقضاض على مراكبه ، ولم يكن لهؤلاء الاندلسيين صلات طيبة بالقبائل المجاورة التي آكانت تعتبرهم ضعيفي الايمان فلم يكن بينهم والحالة هذه تأمر من أجل القرصنة المشتركة .

وقد لاحظ دو كاستر أنه ورد على سلا غب هذا العهد أترك ومسلمون حديثو عهد بالاسلام انحدروا من مختلف آفاق المتوسط وكانوا عبارة عن عصابات اتخذت اللصوصية مهنة لها فما لبث هذا الخليط من البشر ان انساق على غرار أمثاله من سكان المدن القرصنية الاخرى واذ استثنينا العقيدة الاسلامية التي مزجاة في نفوس هؤلاء فلم يكن هناك كبير لفرق بينهم وبين أهالي مدن المتوسط المسيحية وبالاخص منها ( جنوة وبيزا ولفورن و برشلونة ) . وكان الاسترقاق هو هدف الجانييين الاساسي في القرصنة ، فقد حظ الجنوبيون من كرامتهم التجارية عند ما استرقوا المسيحيين والمسلمين على السواء وفتحوا باب الخناسة على مصراعيها على حد تعبير دو كاستر .

ففي بحبوحة القرن السابع عشر الميلادي كنت ترى في مدينة جنوة بحارين اثرياء يستخدمون عبيد افارقة ولم يتورع عن ذلك حتى كبار المسيحيين الذين كانوا يضربون المثل لم يديهم ، فقد حكى المؤرخ موبط ان أحد سكان تلمسان كان عبدا عند كردينال مدينة ارجونة ، وقد انقلبت سلا على غرار اخواتها من مدن المتوسط القرصنية الى جمهورية وكانت ظاهرة عادية في التاريخ لان كبرياء الحواضر البحرية والتجارية كانت دائما تنوق الى الاستقلال الذاتي فقد انفصلت هذه المدن تدريجيا عن الدول التي كانت تابعة لها لاعتناق النظام الجمهوري ، ففي فرنسا ايضا حصلت مدن ( مرسيليا و لا روشيل و سائن مالو ) على امتيازات وحرية كانت عبارة عن استقلال ذاتي حقيقي ، موجود وكر للقرصنة داخل التراب المغربي كان يتسما اذن مع الناموس الطبيعي في ذلك العهد . وقد ادخل الاندلسيون الى سلا اللغة الاسبانية كما استعملوا القوانين والاعراف الاسبانية البرتغالية وقد لاحظ دو كاستر أنه لا أدل على ذلك من قوائم أعضاء ديوان سلا حيث اثبتت أسماء عائلات اندلسية مثل وزهراء وفتيس ، غير ان هؤلاء الاندلسيين الذين ظلوا مرتبطين نظريا بسلاطين المغرب حيث كانوا يؤدون اليهم جراية خاصة طوعية لم يكونوا يرتكبون جرائمهم الا خارج المياه الاقليمية الوطنية فضل بذلك التجار المسيحيون القاطنون بسلا المغربية محفوفين بالعناية والرعاية .

وقد استمسك ملوكنا بمبدأ حرية البحار وسلامة التجارة الدولية وجعلوا ذلك فوق الاعتبار الدينية .

بل كانوا يتخرجون عن مجابهة الاعتداءات المتكررة في هذا اليدان وكانوا يفرقون بين العمل البحري - خلال الحرب وهو عمل مشروع وبين القرصنة التي لم تكن اكثر من لصووية بحرية .

ان الافارقة لم تكن لهم هواية خاصة في القرصنة مما جعل دوكاستر يؤكد ( ان قراصنة طرابلس الغرب وتونس والجزائر وسلا اذا اردنا ان نقتصر على المدن المهمة لم يكونوا ينبشون على وجه العموم من بين ظهرائي اهالي المغرب بل لم يكونوا ينبشون حتى من بين الاتراك لان الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم كان معظمهم من الدخلاء او احفاد الدخلاء في الاسلام ) وقد لاحظ دوكاستر ان عدد المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام واستقروا في تركيا او في المغرب (يتجاوز كل حسابان ) فمن هؤلاء خير الدين وأخوه وحسن رمضان أمير القراصنة البندقي ، والقرصني كويريلي Kuprili نسيب البابا بي التاسع Pie IX والقرصني الدرکوت Drogouth الذي أسس ولاية طرابلس الغرب ، وقد استنكر الاب دان Dan

توارد اليونانيين والروس والبرتغاليين والاسبان والفلامند والامان وغيرهم ممن كانوا يملأون جوانب البلاد الافريقية ، والحقل العادي لعملية (القرصنة السلاويين) هو بحر الظلمات الذي كانوا يمحرون عبابه صعودا ونزولا حتى الجزر الخالدات الى مياه بريست بفرنسا ، وكانت هذه الجزر تحتضن عام 1595 ميلادية أزيد من ثلاثمائة عائلة افريقية بحيث كان معظم سكان مدينتي فوريطا فانتورا ولا نزاروط Lanzarote - Fuertaventura - افارقة وكانت الاولى وحدها تشتمل على ثلاث عشرة قرية افريقيا ( هسبريس مجلد 25 عام 1935 ) ، وقلما كان السلاويون يعبرون مضيق جبل طارق للدخول للبحر المتوسط حيث كان قراصنة الجزائر يتعرضون اليهم مدعين احتكار القرصنة بهاته المياه ، بل كانوا يفضلون الجولان في لجح الاطلانطيك الى حدود المياه البريطانية بل حتى الى جزيرة نرنوف الامريكية على ان القرصنة ضد الاساطيل الاوربية كان يستغله احيانا ملاكون من بحاري الغرب فقد كان هنالك ضباط ضاربوا في التأمينات البحرية فسلموا سفنهم الى القرصنة المغاربة وقد ضرب دوكاستر مثلا لذلك البارجة ( لارويال ) وهي من حمولة 60 طنا ومجهزة بستة مدافع ، فقد سلمت هذه برباينها والمسافرين المحمولين عليها مع أمتعتهم الى أحد قراصنة سلا يوم 16 شتنبر 1670 ميلادية ، وحكى مويط أن قبطانها الذي هو من مدينة ديبيب ( وهي مدينة فرنسية على بحر المانش ) كان قد ضمن لنفسه تأمينات كبرى على سفينته بحيث أصبح غرمها غنما كبيرا .. وقد لاحظ دوكاستر ان القرصنة كانوا يحترمون المراكب التي تحمل على ظهرها رهبانا متوجهين لاقتكالك الاسرى رغم ماكانوا يحملون معهم من أموال . وقد نظمت بعد الدول الاوربية حملات ضد قرصنية سلا ولكن مطاردتهم

وحصارهم وفنبرتهم للقرصان ذهب ت ادراج الرياح ، ذلك ان نفس هؤلاء القرصان كانوا محميين من طرف دول غربية اخرى تحالفت مع عصابات اللصوص ايغالا في الدسيسسة ضد ملوك المغرب ، على ان بعض الاقطار الاوربية التي لم تكن تذكيتها مطامع بالمغرب كانت تسالم القراصنة حفاظا على وضعها في البحر ... وكانت دول اخرى تستخلص من علاقتها مع القرصان ارباحا طائلة حدثها الى عدم التخرج من مساندة هاته العصابات ، وقد لوحظ أنه في أواخر العهد المريني أصبحت مدينة انفا (I) غنية جدا مستقلة عن باقي البلاد في نظام جمهورية صغرى سكانها قراصنة تربطهم بانجلترا والبرتغال روابط تجارية ، وقد ساعد هذا - التشجيع كلا من انفا وسلا على الايغال في تمردها ضد السلطة المركزية وعقد عدة معاهدات مباشرة مع أوربا كما وقع لعدد من الدول المسيحية التي عاقدت الجزائر دون اشراف تركيا .

فانعدام اللياقة الدبلوماسية كما يسميه دوكاستر هو الذي أطال ضد ملوك المغرب أمد الحركة الثورية التي خاض غمارها هؤلاء الدخلاء من ضعفة الايمان من المسلمين تلك الحركة التي شجعتها بعض الحكومات تمهيدا لتدخلها العسكري في المغرب .



---

(I) تعرض الادريسي الى هاته المدينة في النزهة في القرن السادس الهجرى ( المصدر المذكور ص 48 ) ويظهر ان هذا الاسم استحال الى اسم الدار البيضاء في عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي جدد معالم فضالة وهى مدينة اشار اليها الادريسي كذلك .

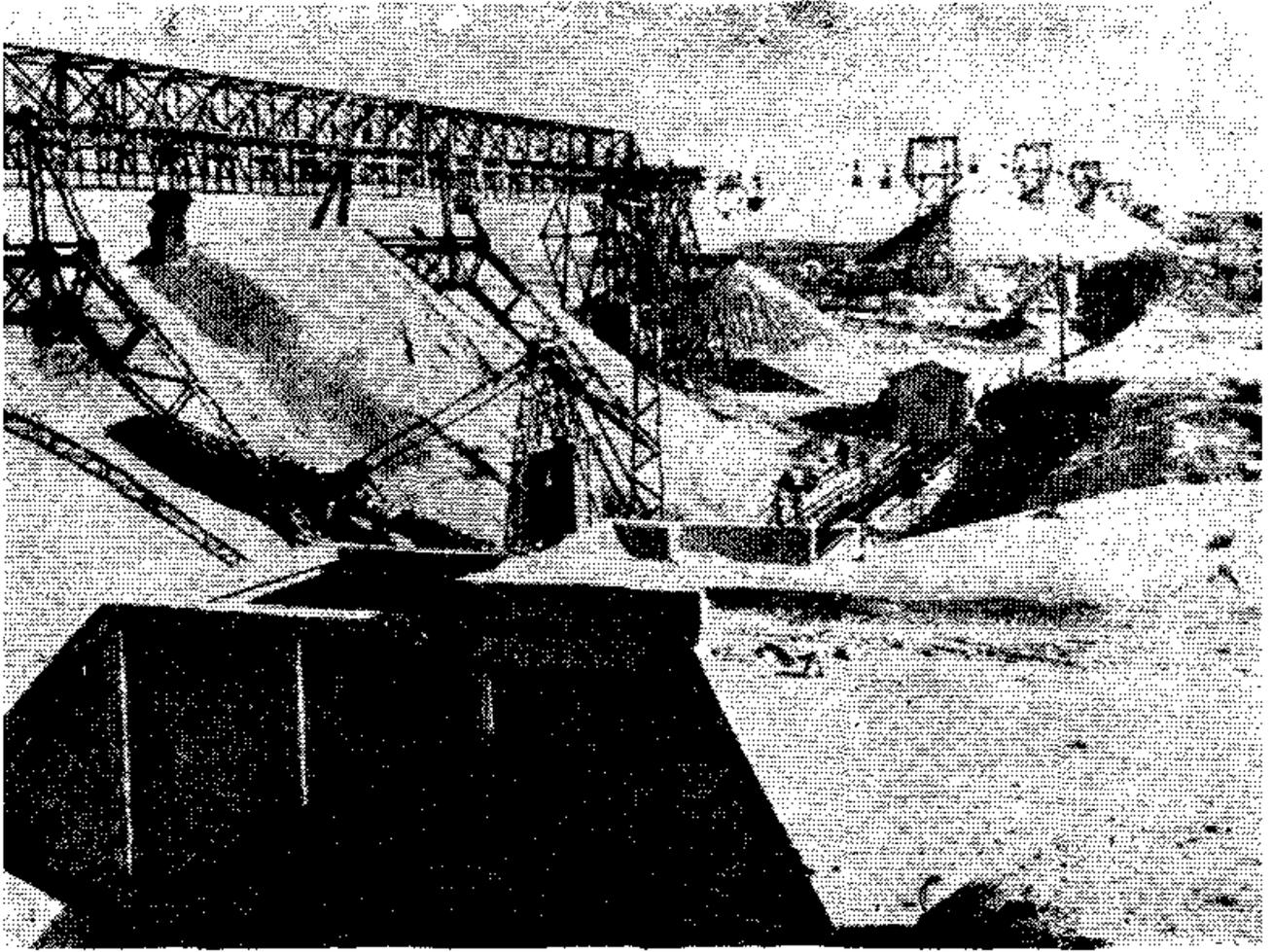
## الفصل الثاني عشر :

### حركة التحرير في العصر الحديث

عند قيام الدولة العلوية كانت أهم مراكز المغرب الساحلية في قبضة الاجانب ، فكان الانجليز يحتلون طنجة والبرتغال البريجة ( الجديدة ) واسبانيا المعمورة (مهديّة) وأصيلا والعرائش بينما كان الفرنسيون يمحرون عباب البحر بسفنهم الحربية بين سواحل الريف ومصب الملوية ، وكان نجم الاستعمار يظهر رويدا رويدا في سماء تلبدت بالسحب القاتمة واكفهرت لها قلوب الامم المستضعفة .

هنالك قيض الله للمغرب المولى الرشيد المؤسس العملى للدولة العلوية الذى يادر بعد امتداد نفوذه فى الريف الى دعم حوزته بتحسين مرسى الحسيمة أو المزمة وحجرة نكور التى كانت مركز أول دولة عربية بالمغرب فى القرن الهجرى الاول وما لبثت الدولة الفتية ان ظهرت غربى البلاد وجنوبيها من الامارات الطائفية التى اقتطعتها ومزقت وحدتها ويبدأ بذلك صراع عنيف بين المغرب والانجليز الذى كانوا يساندون الحضر غيلان .

ثم جاء المولى اسماعيل فعبا جميع قوى البلاد لاتمام برنامج التحرير الوطنى فاستطاع فى ظرف عقد من السنين ان يطرد الاسبان من المعمورة والعرائش وأصيلا، والانجليز من طنجة وكابد الامرين فى حصار سبتة الذى يقال بأنه استمر 26 سنة ولم يكد يمر ربع قرن حتى أصبح المغرب موحدا وامتدت رقعته الى مجاهل الصحراء وأخصب مناطق السودان حيث لم يسبق للمنصور السعدى نفسه ان وصل ، واعترف المغرب اجمع بأن له ملكا واحدا - كما يقول اندرى جوليان - أقام ستا وسبعون قلعة فى مختلف الانحاء تعزيزا لاستقلال البلاد ودعمها لوحدها فاشع السلام وعمت الطمانينة وشاعت الرفاهية وعرف الشعب المغربى الوجه الحقيقى لهذه الدولة التى قامت على سنة الدين لصيانة الوطن المهدد وبعث الاسلام والحنيقية السمحة وانتشر العمران حتى أحصى رحالة فرنسى مائتين وخمسين مدينة عامرة - لا تقل الواحدة منها عن ثلاثين الف نسمة ورفرف التسامح بين المتساكنين من مسلمين وغير مسلمين حتى اعترف المؤرخ كويهلير بأن المولى اسماعيل كان ( أعظم حماة الفرنسيكان ) فى العالم .



من صور المغرب الحديث

وفي غضون ذلك كان الاستعمار يوالى مؤامراته ضد المغرب عن طريق التنافس التجاري تمهيدا للاحتكار الاقتصادي ثم السياسي وكان بعض أصحاب الاطماع يهرجون في الداخل والخارج ويحولون دون انصراف الدولة الكلى الى مواصلة دعم الاستقلال في الداخل والخارج وبعد فترة من الاضطراب جلس المولى محمد بن عبد الله على أريكة العرش فاعاد الطمانينة الى البلاد وأحبط الاطماع التي حدت فرنسا الى التوسع غداة معاهدة 1667 فحرر البريجة واستأنف حصار مليلية ونشر القلاع والحصون في الساحل وبنى معقل الصويرة الاستراتيجية ومرساها فحال دون حركة التهريب والتسرب الاجنبي في الجنوب وفتح في نفس الوقت باب المبادلات مع أوروبا في حدود ما يجنيه ميزان المغرب التجاري من فوائد وكان يصرف فيض العملة الاجنبية في جلب العتاد الحربى ومواد بناء السفن من السويد وانجلترا واستورد بعثة من

الخبراء العسكريين الاتراك لتدريب رماة الجيش المغربي .

وبفضل هذه السياسة الدفاعية أمكن لمعاقل الساحل وبطارياتها أن تصد في ظرف سنة واحدة تقريبا غارتين شنهما الاسطول الفرنسي على كل من سلا والعرائش وكانت فرنسا قد دست أحد رجالها في الجنوب وهو البارون سانطو بين قبائل الشلوح يستفزها ضد العرش .

وكان المولى محمد بن عبد الله أول من شجع الحركة التحريرية الامريكية حيث سارع قبل الجميع الى الاعتراف باستقلال الولايات المتحدة .

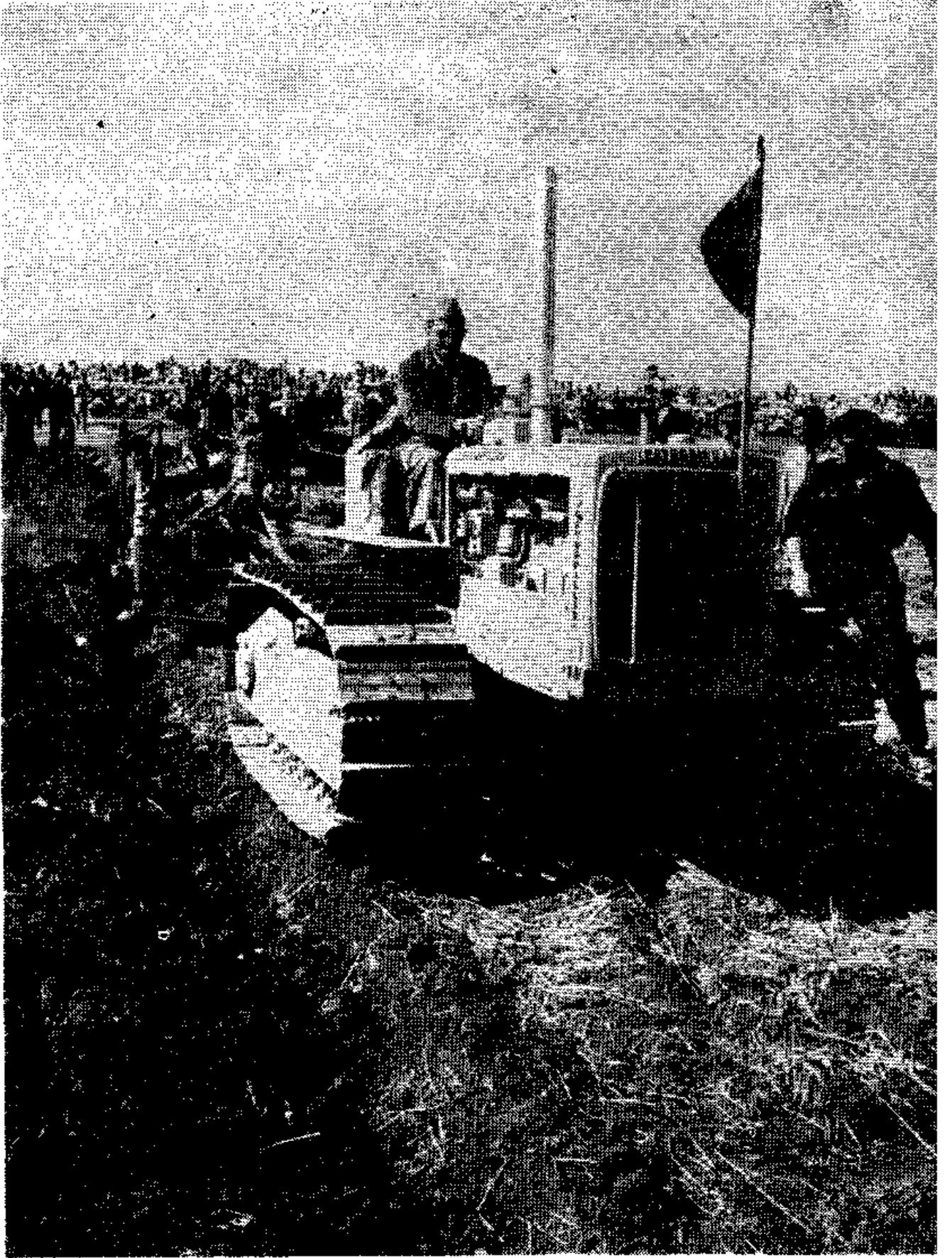
وقد قضى مولاي اليزيد سنتين في الكفاح من أجل تحرير سبتة وأقام ست عشرة قلعة جديدة في نقط استراتيجية وسلح كلا منها بعشرين مدفعا فاستتم المغرب بذلك اطارا قويا من القلاع الساحلية العتيدة .

ثم جاء المولى سليمان فحرر وجدة من قبضة الاتراك واحيط استفزازات فرنسا وقد ضغط عليه نابليون للانضمام الى ماكان يسمى اذ ذاك (بكتلة الحصار البري وهي الحركة التي هدف بها الامبراطور الفرنسي عام 1806 الى اقفال جميع الموانئ في وجه انجلترا وقد هدد نابليون ملك المغرب في رسائل شديدة اللهجة باكتساح افريقيا بمائتي الف جندي .

ولكن المولى سليمان قابل ذلك بالرفض والبرود ، غير أن المؤامرات الاوربية استفحلت وتمخضت في النهاية عن اجبار السلطان على التجرد من أسطوله الذي كان يحتوي اذ ذاك على 47 قطعة مجهزة بمدافع وبسبنة آلاف من البحارة الماهرين . فلم يبق للسلطان اذ ذاك لحماية الوحدة الوطنية وكيان البلاد واستقلالها سوى مدافعة الدول بعضها ببعض .

غير ان الاطماع الاوربية تبلورت بصورة خطيرة فشبت معركة ايسلي وقنبلت طنجة والصويرة واستعرت حرب تطوان وكافح المولى عبد الرحمن ضد الاطماع الاسبانية في الجنوب كما واجه مشاكل الحدود المغربية الجزائرية مع فرنسا وولى المغرب وجهه صوب الولايات المتحدة الامريكية ففاوضها في حلف عسكري لاجباط مطامع أوربا وظل المغرب يجابه سلسلة من المؤامرات استمر أوراها نحو من ستين سنة كابد خلالها أربعة من الملوك العلويين الأمرين واستطاعوا الاحتفاظ في النهاية باستقلال المغرب كما تمكنوا في نفس الوقت من صيانة ثروة البلاد وتنميتها . ففي السنة التي تولى فيها المولى عبد الرحمن اى منذ مائة سنة بلغت رؤوس الفخيم وحدها في المغرب 48 مليوناً .

وقام يتسع عشرة جولة في الجنوب وحده الى أقصى التخوم لتركييز وحدة



صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصرى

التراب وحارب نوعا جديدا من الدسائس الاوربية الناتجة عن مشكلة الحماية في المغرب غداة حرب تطوان وكان الانجليز والفرنسيون والاسبان يتجادبون السلطان وكلهم يهدفون لغاية واحدة هي بسط نفوذهم على المغرب ولكن بالرغم من ذلك كله ظل المغرب محتفظا باستقلاله ووحدته تحت رعاية الدولة العلوية قرنين ونصف قرن .

ثم جاء مولاي الحسن فنفتح في المغرب روحا جديدة وجدد نظام الجيش فلما جاء مولاي عبد العزيز تزايد الضغط واتسعت شبكة التكتل الاوربي ضد المغرب فتكونت في فرنسا على الخصوص جمعية معروفة دفعت بوحامارة الى الثورة ودعا رجال الاقتصاد الفرنسيون للتسرب الى البلاد من خلال التلمة المالية كما وقع في مصر فاضطر السلطان مرة أخرى الى مدافعة الدول بعضها ببعض وطلب عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي جدد الاعتراف باستقلال البلاد ووحدته الترابية فكان ذلك خير ما قدمه المولى عبد العزيز قبيل الاحلاف السرية . غير ان استمرار الدسائس الاجنبية ادى اواخر الامر الى بسط الحماية الفرنسية التي جعل العرش والشعب حدا لها عام 1956 بعد كفاح استمر ربع قرن .

وقد واصل الشعب المغربي كفاحه من أجل استرجاع استقلاله ووحدته فشبت حرب الريف بعد نحو عقد من السنين تكالب فيها الاستعمار الفرنسي والاسباني وقد حاول جلالة الملك الشاب محمد الخامس أن ينقذ خلال هذه الفترة السوداء ما أمكن انتقاده بفضل لباقتة وحسن مرونته وكان لجلالته اتصال وثيق بالحركة الوطنية وتأييدا خفي لمراميتها حتى أعلنت هذه الحركة مطالبتها بالاستقلال عام 1944 فوجدت في صاحب الجلالة الذي كان يمد لها في الحفاء سندا قويا ما لبث أن أرسلها صرخة مدوية في خطاب طنجة عام 1947 أمام الملا الدولي في المركز الذي ظل عاصمة المغرب الدبلوماسية حقبة طويلة .

وقد غامر جلالة محمد الخامس بعرشه ونفسه وأهله في سبيل قضية الوطن العليا عند ما وقف في وجه فرنسا وممثليها بالرباط جنبا الى جنب مع شعبه يطالب بالاستقلال ووحدة الكيان فلم يتورع الاستعمار عن الزج بجلالته في غياهب المنفى السحيق ومع ذلك ظل جلالته صامدا في وجه الخصم الفاشم صحبة الامراء والاميرات وكان جلالة الملك الحسن الثاني خير رفيق في هذا المنفى لوالده المقدس واحتدمت المعركة الكبرى بين الشعب والاستعمار تأييدا للاسرة المالكة في منفاها فاضطر المستعمر بعد أن حاول الصمود في وجه الشعب الثائر الى الخنوع والانصياع فرجع جلالة الملك من منفاها ظافرا حاملا لشعبه الوفي خير هدية كيلت هذا الجهد الجهاد الطويل وهي وثيقة الاستقلال .

وحتى بعد عام 1956 لم يغمض للملك الظافر خفن حيث واصل الكفاح من أجل

توطيد دعائم الاستقلال والوحدة وتحقيق الجلاء وكان جلالة الحسن الثاني المساعد  
الايمن لوالده انراحل في هذا الجهاد الاكبر الذي مازال جلالة الملك الشاب - نصره  
الله يسجل في حليته أروع الانتصارات سياسيا واقتصاديا وثقافيا .  
وهكذا توالى حلقات الكفاح الذي خاض غماره ملوك الدولة العلوية  
ثلاثة قرون .



صاحب الجلالة المغفور له محمد الخامس على محراث عصرى

## الفصل الثالث عشر :

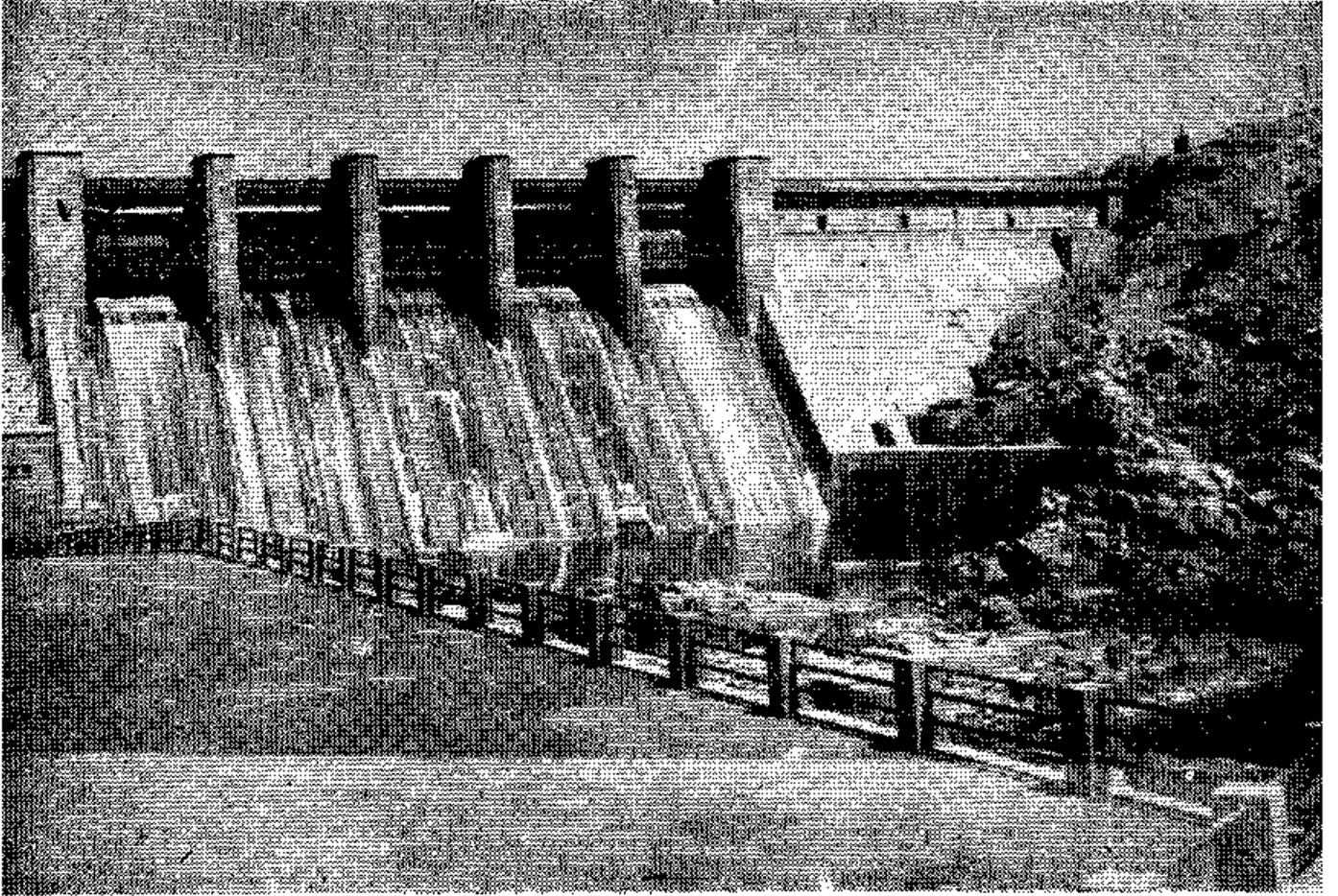
### تقاليدنا الدبلوماسية

بعد القرن الخامس الهجرى بدأت العلاقات بين افريقيا الشمالية المسلمة وأوروبا المسيحية فى شكل مبادلات تجارية أدت الرغبة فى تنظيمها وتوفير ضمانات استمرارها الى التفكير فى عقد اتفاقات ويظهر ان المعاهدات لم تكن تعدو فى البداية تبادل رسائل أو رسل يضطلعون بالمفاوضات فلا يتجاوز الاتفاق فى نهاية الامر مرحلته الشفاهية التى كانت تعتبر وحدها اساسا قانونيا ينبنى عليه فيما بعد الانجاز والتنفيذ وبدخول المقتضيات الشفوية فى حيز التنفيذ تصبح لها بحكم العادة والاطراد صبغة اصطلاحية تتسم بها العلاقات بين البلدين وتجرى عليها كقاعدة يعترف بها الطرفان بصورة عملية .

ثم تطورت العلاقات فاضطر الطرفان المتعاقدان الى تبادل وثائق رسمية تحدد فيها شروط التعامل بصورة دقيقة تكفل استمرارا نزيها للتنفيذ .

ومكاتب أوروبا مليئة بنصوص هذه المعاهدات التى يرجع أقدم ما عشر عليه منها الى عام 1157 وحدثها الى عام 1509 باستثناء وثائق العصور الحديثة التى اثبت بعضها دو كاستر فى مستنداته . والتى كتب عنها بحاثون غربيون مثل الاستاذ كاييى الذى نشر أخيرا المعاهدات الموقعة بين بعض الملوك العلويين وخاصة سيدي محمد بن عبد الله مع دول أوربية التزم بعضها بأداء جزية الى المغرب مثل السويد والدنمارك ومدينة بريم الالمانية

وأول من تصدى للكشف عن معاهدات العصور الوسطى ونشرها طرونسى وفلامينيو وبرونيتى ( Tronci, flaminio del Borgo, Brunetti ) ثم جاء امبارى ( Smari ) فنشر مجموعة اخرى عام 1763 فى مجلد ضخم يحتوى على 74 وثيقة اصلية منها ثلاث عشرة فى نسختين بحيث يبلغ مجموع الوثائق المكتشفة 98 منها 45 محررة باللاتينية او الايطالية و 52 بالعربية غير ان هذه المستندات لا تتعلق فحسب بالمغرب العربى الذى ظل خاضعا لمعظم العصور الوسطى للملوك مراکش بل تخص حتى مصر وسوريا وبعض جزر المتوسط ولكن 41 منها مغربية



من صور المغرب الحديث

بالمعنى القديم لهذه الصفة أى تشمل مقاطعات المتوسط الممتدة من طنجة الى طرابلس الغرب وتحتوى هذه المجموعة علاوة عن 14 معاهدة ( مسالة وتجارة ) رسائل وجوازات وتوكيلات ومراسيم ملكية ( يخص عدد كبير منها القراصنة المسيحيين ) وتعليمات دبلوماسية .

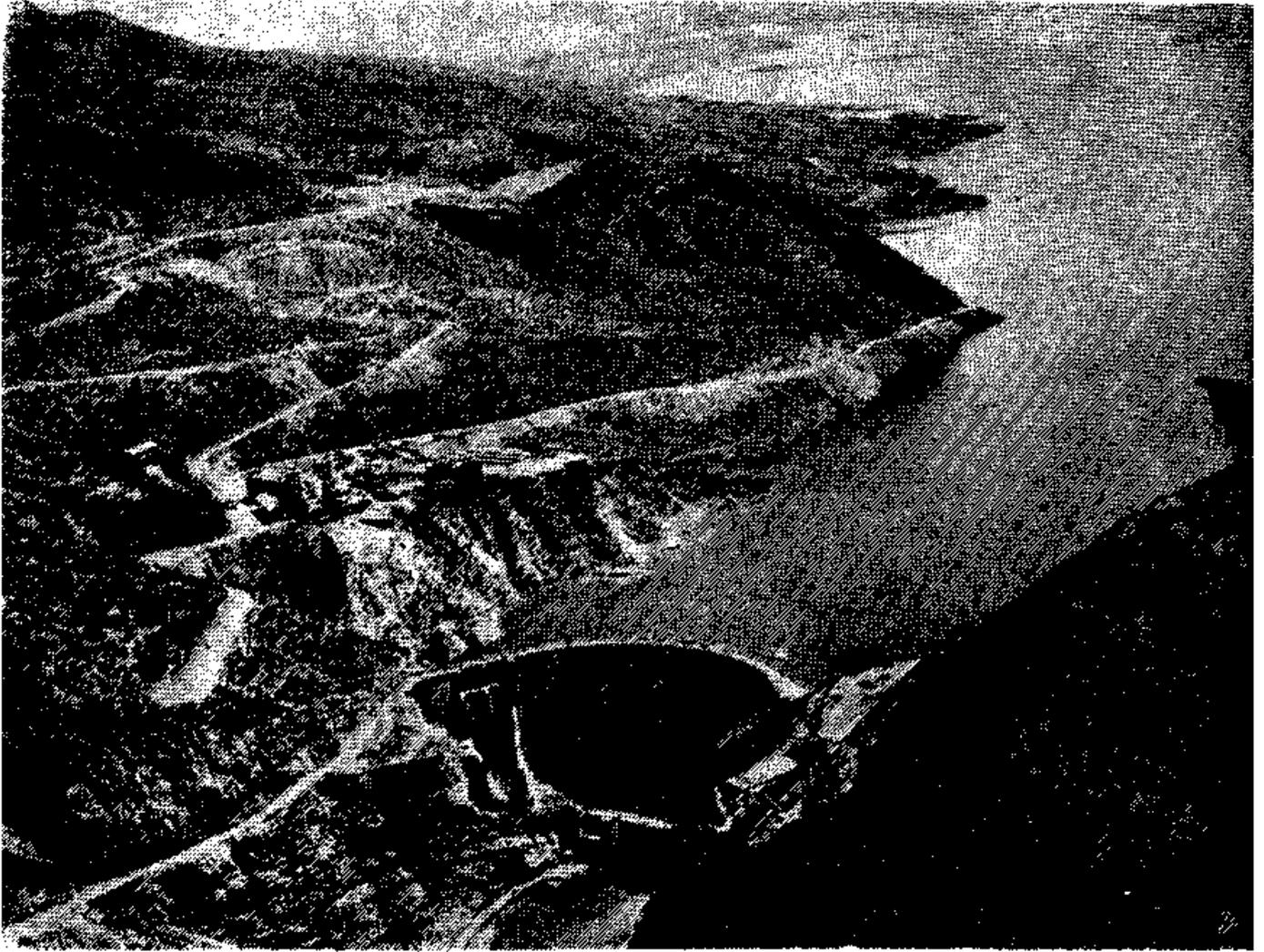
ثم جاء م دو ماس لاترى ( M. L. De Mas latrie ) فجمع الوثائق الدبلوماسية التى كانت خلال العصور الوسطى أساسا وقاعدة لعلائق المغرب ببعض الامم اللاتينية مثل بيزة وفلورنسة والبندقية وجنوة الخ .

فاذا حللنا الملابس التى أسفرت عن وثيقة II57 وهى اقدم ما وقع العثور عليه لاحظنا ان المعاهدة كانت تناقش ثم يقرر ( نصها ) النهائى شفويا اذ عند ما يتم التوافق على النقط الجوهرية يلخص شفاهيا ويصادق عليها بتشبيك الاصابع أو بقسم وتعتبر هذه العملية بمثابة ابرام للمعاهدة ولكن تسلم فى الغالب للسفراء رسالة تنص على انعقاد المعاهدة وتلخص كما وقع عام II57 الضمانات الاساسية المكفولة للمسيحيين كضمان حياة الافراد وحرية معاملاتهم ويكل المتعاقدان الى العادة والسوابق الواقعية تسوية المسائل الثانوية كالتى تتصل مثلا بمقام التجار الاوربيين والجمارك والصفقات المعقودة .

واول معاهدة مكتوبة وجدت يرجع عهدا الى سنة II74 م ولكن هناك رسالة وجهها اسقف بيزة الى السلطان الموحدى أبى يوسف الموحدى عام II81 تشير الى معاهدة مكتوبة أبرمت مع الخليفة الموحدى .

أما فيما يخص الشكليات فان عدم الاشارة فى صلب المعاهدة الى بعضها مثل حضور الشهود ومصافحات التأكيد وترجمة النص - ليس معناه عدم اجرائها - على ان معاهدات القرن الثانى عشر الميلادى تورد اسماء المفاوضين وتعلن ان الله هو خير ضامن وهو الشهيد الوحيد فى امضاء المعاهدة وذلك رغم كون السفراء المفاوضين كانوا محاطين فى الواقع ب مترجمين وعدول وكتاب أو نساخين وقد تشير المعاهدة احيانا الى تشابك الايدي كعنوان عن ابرام العقد وكذلك الى كون المعاهدة حررت فى نسختين أصليتين أما فى القرن الثالث عشر ( لاسيما فى آخره ) فان المعاهدات بدأت تشير بوجه عام الى حضور شهود عرب ومسيحيين وتذكر اسم الكاتب والمترجم وما فتئت هذه الشكليات تنطور تدريجيا حتى رايناها تتخذ فى القرن الرابع عشر شكل مراسيم ويقع التنصيب فى صلب المعاهدة على التسلسل التاريخى للمفاوضات وتحرير الوثائق وهاكم - حسبما رواه لاطرى - صورة عن سير المفاوضات بين السفراء الاوربيين وملوك المغرب كما يتجلى ذلك من خلال المعاهدات نفسها .

ياتى السفير المسيحي الى افريقيا حاملا من اميره رسالة اعتماد تخوله حق



من صور المغرب الحديث

التفاوض فيستقبل من طرف ملك المغرب ويرفع اليه تحيات أميره وهداياته ثم يرجو منه أن يحدد له اليوم الذي يمكنه ان يبسط فيه لجلالته بصورة اوسع واتم ما جاء لاجله . وكان الاستقبال الرسمي يؤجل في الغالب لبضعة أيام يقضيها السفير في زيارة الوزراء والحاشية الملكية وفي اليوم المحدد يقدم السفير نسخة من المعاهدات السابقة أو مذكرة تحتوي على بنود مشروع الاتفاق الجديد فضلا فضلا ثم يحضر للسلطان تقرير حول هذا المشروع يحال على لجنة لدرس بنوده .

ونظرا لوجود اسارى مسيحيين في المغرب كان السفير يغتنم في الغالب فرصة وجوده بالحضرة السلطانية فيطلب افتكاك بعضهم وكانت الحكمة المغربية تفضل في الغالب بتلبية رغبته فتبادر بتسهيل افتكاك الاسرى وقد تتحمل هي نفسها تكاليف الفداء ثم تفتح المحادثات فيما بعد وكانت تجرى في الغالب بالقصر أو في منزل أحد كبار الدولة وتنص المعاهدة عادة على نفس المحل السدي انعقدت فيه الجلسات وأبرم فيه العقد وهو اما قاعة الاستقبالات او أحد اجنحة الحدائق الملكية أو منزل أحد الوزراء أو احد اعضاء لجنة المفاوضة كمدير الجمارك المغربية.

وفي جلسات المفاوضة كان أعضاء الوفدين العربي والاوربي يدلون بنقط ومذكرات أي بسلسلة من البنود تشكل مشروعا تمهيدا يتخذ أساسا للمداولات وعند ما يتم الاتفاق بين الطرفين على أسس المعاهدة الجديدة تحرر نسخة من المشروع باللغة العربية أولا في أغلب الاحيان وبعد تحرير الاصل العربي تنعقد جلسة رسمية لترجمته للغة العربية ثم امضاء النسخ وطبعها بالخاتم الملكي .

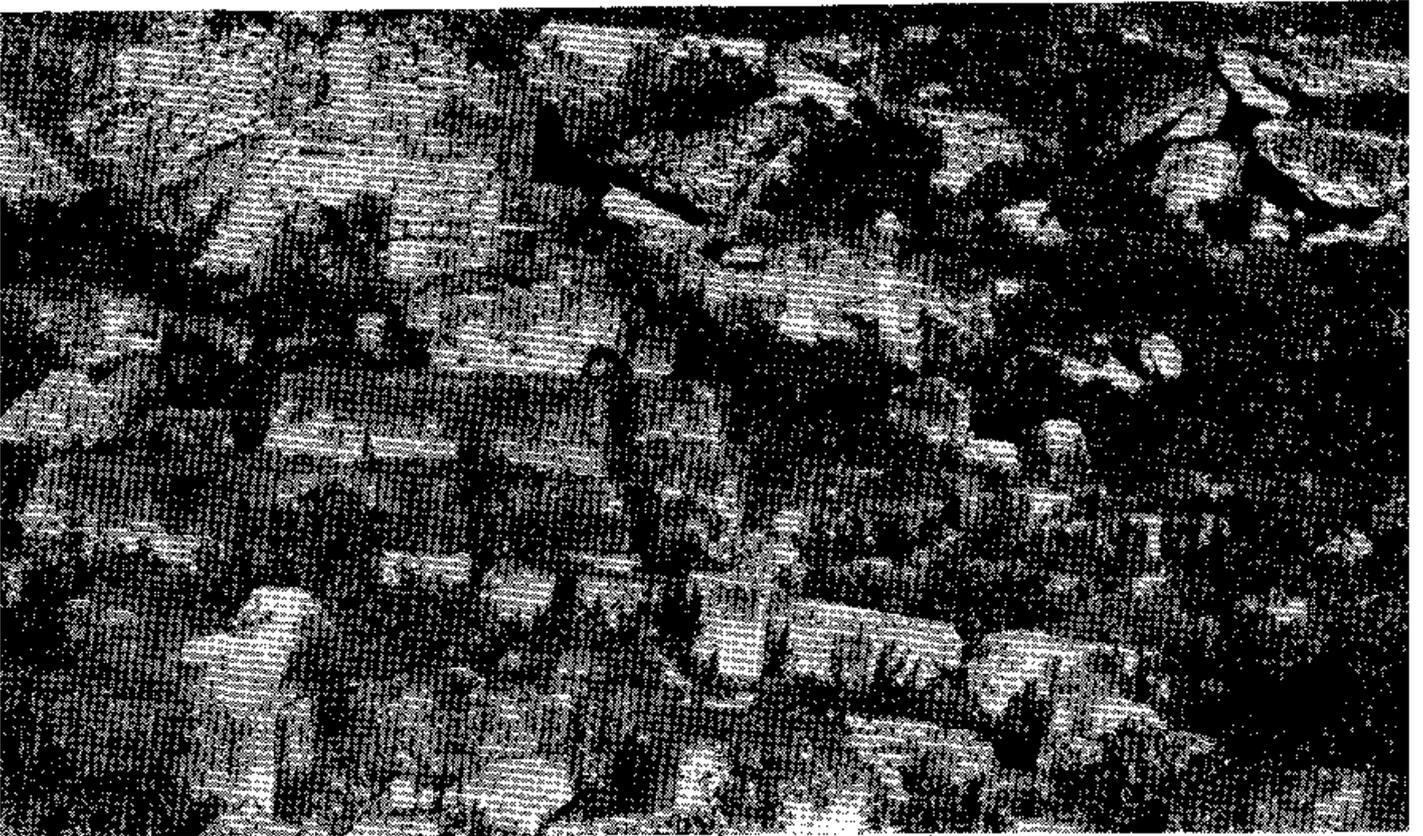
وكانت هذه المرحلة الاخيرة تجرى في أبهة ضمن محفل غفير في نفس المكان الذي انعقدت فيه جلسات المؤتمر ويستدعى عادة للمشاركة في هذا الحفل بجانب المفوضين وترجمانهم وعدولهم وفنصل الدولة المتعاقدة والقناصل الاجانب أو بعض أعيان تجار الجاليات الاوربية بالمغرب ورجال الدين المسيحيين القاطنين بالبلدة وبعض الشهود من المواطنين المسلمين وحتى قواد الميشيات المسيحية - المنخرطة في الجيش المغربي - الذين طالما أمضوا المعاهدات كشهود .

تلك هي المراحل التي كانت تسبق عادة امضاء المعاهدات بين المغاربة والاوربيين والتي وقع النص عليها في بروتوكولات الموثيق الدبلوماسية على أن هناك جملة من التقاليد الاستثنائية التي كان المغرب يجريها على بعض الدول دون الاخرى .

كل ذلك يقع اذا ما تم اجراء المفاوضات وتوقيع المعاهدات في المغرب نفسه أما اذا حرر نص المعاهدة في اسبانيا مثلا مع سفير مغربي فان طريقة العمل تختصر وقد علل بعض المؤرخين الغربيين هذا الاقتضاب في الشكليات بوفرة العلاقات بين الاسبان والعرب وانتشار اللغتين العربية والاسبانية بين الشعبين فاذا ما تم الاتفاق بين



منظر من آثار لوكسوس وهي اول مدينة بناها القرطاجيون بالمغرب منذ  
ثلاثة آلاف عام



مظهر من بقايا آثار شالة

السفير ووزراء الامير الاسباني حول أسس المعاهدة تتكفل الدبلوماسية الاسبانية نفسها بتحرير نسختين للمعاهدة بالاسبانية يكتبان حتما في نفس الوثيقة كل في جهة يفصلها هامش قد سجلت فيه مستندات أخرى ويوقع الوزير الاسباني باسم أميره على النصين ثم ترسل الوثيقة الى المغرب ليذليها السلطان بخاتمه وامضائه فيحتفظ بنسخة ويعيد الاخرى وكانت هذه الطريقة تتبع في المغرب الادنى أكثر من غيره . وفي بعض الاحيان كان النص الاسباني المزدوج يسجل في نسختين منفصلتين يختتمهما الامير الاسباني بطابعه أولا ثم يوجهان الى المغرب بعد ذلك لتلقى الختم السلطاني ويتم العقد بتبادل وثيقتين أو رسالتين مختومتين بنفس الطابع فيحتفظ الامير المسيحي بالنص الذي يحمل طابع السلطان بينما يحتفظ هذا بالنص المختوم من طرف زميله الاسباني .

والمعاهدة المبرمة عام 1274 م بين ملك ارغون جاك الاول وبين يعقوب المريني نموذج لهذه الطريقة الاخيرة .

وتوجد نصوص أخرى حررت بطريقة أخرى منها المعاهدة المبرمة بتاريخ 13 ابريل 1339 في تلمسان بين جاك الثاني ملك جزيرة ميورقة وابي الحسن المريني ملك المغرب وكذلك المعاهدة التي أبرمت بين أبي عنان وأمير ارغونة بطبرس الرابع عام 1357 وكان نص المعاهدة الاولى ما زال محفوظا في مكتبة باريس الملكية أواخر القرن الماضي وتتلخص هذه الطريقة الثالثة في تحرير نص المعاهدة على ورقتين تطويان على طولهما ويسجل النص الاسباني على اليمين بمحضر السفير المغربي ويذيل الامير الاسباني كلا النصين بخاتمه ثم تسلم الوثيقتان احدهما الى السفير المغربي والاخرى الى مبعوث اسباني يتوجهان معا الى المغرب لتحرير النص العربي على عمود اليسار ثم تديله بامضاء السلطان وخاتمه ويعود السفير المسيحي الى بلده حاملا نص المعاهدة وفي معاهدة تلمسان المحفوظ نصها بباريس كتب النص الاسباني في اليسار وذيل كذلك بامضاءات المتفاوضين والشهود من الطرفين .

وهناك طراز آخر من المعاهدات يحتوي على فصول وبنود ( منمرة ) ويرجع عهده للقرن الخامس عشر الميلادي غير ان هذا النوع لم يتركز الا في القرن السادس عشر ويقولون بان فصل البنود بعضها عن بعض وترتيبها كان اقل عند المغاربة منه عند الاوربيين ولكنهم يعترفون بانه اقدم عند اولئك ( والترقيم ) عند المغاربة كان يجري بالحروف لا بالارقام كما يلاحظ في نص معاهدة عام 1358 المبرمة بين المغرب وجمهورية بيزة وقد لاحظوا ان ( الترقيم ) لم يكن يوجد احيانا في النص العربي .

ويستنتج من مقابلة بعض النصوص العربية للمعاهدات مع النصوص المحررة بالاسبانية أو الايطالية أو اللاتينية وجود خلاف في كثير من الوجوه قد يشوه احيانا قوام المعاهدة وهذه الملاحظة قد ابداهها مستشرقون أمثال ساسي ورينو وأماری الذين

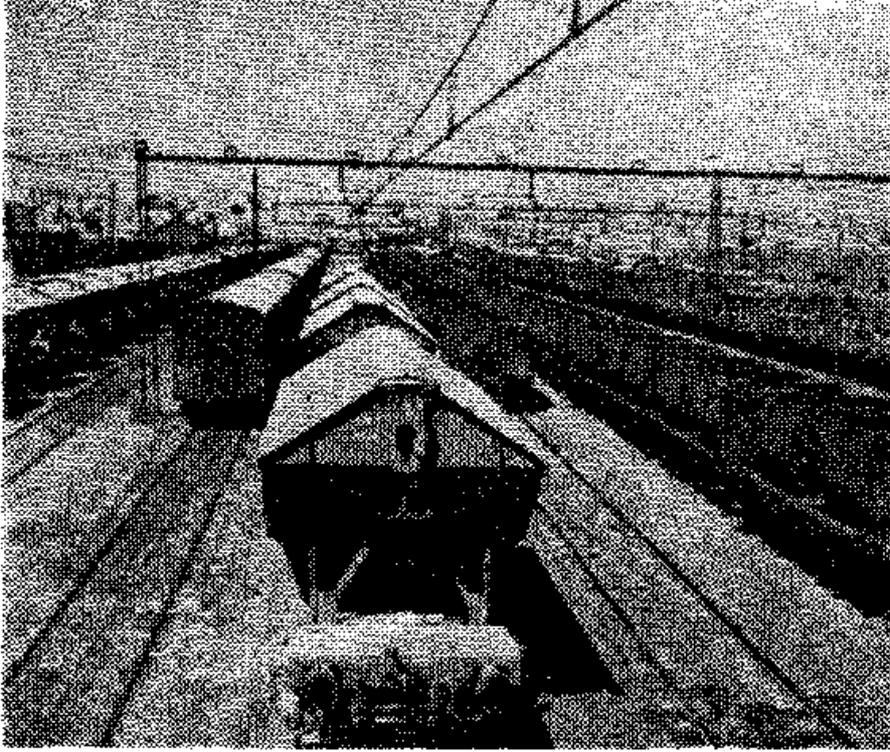


مطرفة من حديد - بازيلال بالاطلس الاوسط

نهبوا على اغفال النص اللاتيني لبنود بكاملها وتحوير اخرى تحويرا يقلص من مداها  
هذا علاوة على الاقتضاب والغموض وتحريف الاعلام . ولا شك ان ذلك يقلل من قيمة  
النصوص كوثائق تاريخية وقد ادلى م . لاطرى بأمثلة من هذه التحريفات الخطيرة  
التي مست بجوهر المعاهدة منها ما وقع عام 1398 حيث اضيف الى النص اللاتيني  
والايطالى للمعاهدة المضادة في تونس فصل لا وجود له في النص العربي الذي يعتبر  
هو النص الرسمي لانه هو الاصل الذي ترجم منه النص المسيحي ووجه الخطورة في  
هذا الفصل المزور أنه يحمل المسؤولية الجنائية للقناصل عند ما يرتكب مواطنوهم  
اعتداء ما ضد المغاربة مع ان ملوك المغرب العربي عارضوا دائما مبدأ اتخاذ القناصل  
رهائن للاقتصاص منهم عند الاقتضاء .

تلك صورة مقتضبة عن الشكليات التي كان العمل جاريا بها في المفاوضات  
والامضاء على العقود الدبلوماسية .

ونستخلص من هذا العرض ظواهر شتى ابرزها الروح القانونية الدولية التي تشبع  
بها ملوك المغرب منذ ما يقرب من الف عام ومدى حرص هؤلاء الملوك على ضمان احترام  
السيادة المغربية حتى في مظاهرها البسيطة وسعيهم الحثيث لتطوير علائق مسالمة  
مع اكثر ما يمكن من الدول رغم ما كان يسود العصور الوسطى من حروب اساسها  
اختلاف العقيدة والانانية العنصرية والمطامع المادية .



السكك الحديدية



من صور الأزياء المغربية ( أحد الشيوخ )



امراة مغربية بدوية

# فهرس

## القسم الأول

### المظهر الحضاري الاجتماعي

صحيفة

5	الفصل الاول : المرأة المغربية
32	الفصل الثاني : رسالة الاوقاف الاسلامية
40	الفصل الثالث : الاسلام فى المجتمع البربرى
45	الفصل الرابع : الحالة المدنية
47	الفصل الخامس : سكان المغرب

## القسم الثاني

### المظهر الحضاري الاقتصادي

53	الفصل السادس : الاقتصاد فى ألف عام
67	الفصل السابع : الصناعة التقليدية
86	الفصل الثامن : العملة المغربية
93	الفصل التاسع تطور النظام الجبائى

## القسم الثالث

### المظهر الحضاري العسكري والدبلوماسي

99	الفصل العاشر : الجيش المغربى
III	الفصل الحادى عشر : الملاحة والقرصنة
124	الفصل الثانى عشر : حركة التحرير فى العصر الحديث
130	الفصل الثالث عشر : تقاليدنا الدبلوماسية

مطابع دار الكتاب  
الدار البيضاء